مدينة السعادة

هابينيسيا

رواية

إنها تلك الفرصة التى لا تأتي سوى مرة واحدة وتستطيع أن تغيرك إلى الأبد

د. تامر شعبان

هابينيسيا

مدينة السعادة

د. تامر شعبان

إهداء

إلى كل من تشتاق روحه للسعادة..
لعل هذه الرواية تساعده على الوصول إلى لحظة
من لحظاتها ومعنى من معانيها.

د. تامر شعبان
طبيب وباحث وكاتب

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

-١-
يوسف

أَوَدُّ أَن أعرّفكُم بِنَفْسِي: أَنَا (يُوسف)، أعيش وَحِيدًا فِي شَقَّةٍ صَغِيرَةٍ بِمَدِينَةِ اَلْوُرُودِ كَانَت لِأَبِي – رحمة اللهِ عليهِ - بَعد أَنْ تَرَكَتْنِي أُخْتِي اَلْوحيدَةُ (أَمل)، وَرَحلَتْ مَعَ زَوْجِهَا (جمال).

أَعْمَلُ مُحَاسِبًا بِإحدى اَلشَّرِكَاتِ اَلْكُبْرَى مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ، وَأبلغ من اَلْعُمْرِ ثمانيةَ وعشرين عَامًا.

كُنْت أَحْيَا حَيَاةً عَادِيَّة إِلَى أَن قبلتُ هَذِهِ اَلدَّعْوَة اَلَّتِي غَيَّرَت حَيَاتِي إِلَى اَلْأَبَدِ.

كانت تِلْكَ اَلدَّعْوَة لِزيارةِ مَدِينَةِ هَابِينِيسِيا (مَدِينَةُ اَلسَّعَادَةِ)، تلك المدِينةُ العجيبةُ التي لا يعرفُها أحدٌ.

وَلَوْلَا وَرَقَة اَلدَّعْوَةِ اَلَّتِي مَا زَالَت مَعِي، لَاعتقدتُ أنني كُنْتُ أحلم، وَأنّ كُلَّ مَا حَدَثَ مَعِي مَا هُوَ إِلَّا أوهام.

إنهُ ذَلِكَ الحَدَث اَلَّذِي لَمْ أَكُن أَتَوَقَّعُه، وَاَلَّذِي أيقَنْتُ من بَعْدِهِ أنهُ بِمُجَرَّدِ تَغْيِيرِ طَرِيقَةِ تَفْكِيرِكَ، وَزَاوِيَة رُؤْيَتِكَ لِلْأَحْدَاث، قَدْ تَتَغَيَّر حَيَاتك كُلها.

إنهَا مُغَامَرَةٌ اِمتدّ تَأْثِيرُها إلى أعْماقِ نفسِي، وَغَيَّرَت طَرِيق حَيَاتِي إِلَى اَلْأَفْضَلِ وَإِلَى اَلْأَبَدِ.

وَالْآن إِلَيكُمْ قِصَّتِي.

-٢-

يوم في حياتي

اِسْتَيْقظتُ كَالْعَادَةِ عَلَى رَنِينِ اَلْمُنَبِّهِ فِي اَلسَّاعَةِ اَلسَّابِعَةِ صَبَاحًا، مَدَّدَتُ يَدِي أَتَحَسَّسُ مَكَانَه لَأوْقف صَوْتهُ اَلْمُزْعِجَ اَلَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ، جَلستُ فِي سَرِيرِي اَلصَّغِيرِ، وَأَنَا أَقُولُ:

- مَتى أَسْتَرِيحُ من هَذَا اَلرَّنِينِ اَلْمُزْعِجِ؟ حَتَّى أنني أَشْعُرُ بِأنني أسْتحقُ أَفْضَل من هَذِهِ اَلْوَظِيفَةِ، حَتَّى رَاتِبِي، أَعْتَقِدُ أنهُ يَجِبُ أَنْ يَزِيدَ لِمَا أَبْذُل من جُهْدٍ.

تَنَهدتُ يَائِسًا، فَهَذَا اَلْحَدِيثُ أُحدّث بِهِ نفسي دَائِمًا بِلَا فَائِدَةٍ...

ثُمَّ قُمتُ من سَرِيرِي ذاهبا إِلَى مطْبَخِي...

بَحثتُ عَنْ اَللَّبَنِ أَوْ اَلْبَيْضِ فِي ثَلَّاجَتِي فَلَمْ أَجِدْ لَهُمَا أَثَرًا، عِنْدَهَا تَذَكَّرتُ عَوْدَتِي اَلسَّرِيعَةُ أَمْس، وَعَدَمِ تَمَكُّنِي من شِرَاءِ اَلطَّعَامِ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي:

- إنه بسببِ ذَلِكَ اَلرَّجُل اَلَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ مُحَادَثَتِي عِنْدَ مَتْجَرِ بَيْعِ اَلْأَغْذِيَةِ وَاَلَّذِي هَرَبَت منهُ سَرِيعًا لِكَيْلَا يَطْلُب مني مَالاً، لَا أَدْرِي لم قَد يَفْعَلُ هَذَا اَلرَّجُل صَاحِب اَلْمَظْهَرِ اَلطَّيِّبِ مِثْل تِلْكَ اَلْأَفْعَال.

تَنَهدتُ مُجَدَّدًا وَعَزَمَت عَلَى أَنْ أَذْهَب لِلْعَمَلِ وأن أطْلب هُنَاكَ طعامًا.

-٣-

أمل

مَا أَن فَتحتُ بَابَ شَقَّتِي عَازِمًا عَلَى اَلذَّهَابِ إِلَى عَمَلِي حَتَّى سَمعت رَنِينَ هَاتِفِي اَلْمَحْمُولِ.

أَغْلقت البَابَ وأمسكتُ بهَاتِفِي اَلْمَحْمُول لِأَجِدَ أن اَلْمُتَّصِلَ هُوَ أُخْتِي اَلْكَبِيرَةُ والوحيدةُ (أَمل) . . .

لَقَدْ رَحلَت أمل مَعَ زَوْجِهَا مُنْذُ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ،

لَمْ أَكُنْ أَدْرِي وقتها لِمَ رَحلا؟!!

وَقَدْ أَهْلَكَت اَلظُّنُونُ عَقْلِي بحثًا عن أَسْبَابِ رَحِيلِهِمَا، فقد كانت بمثابةِ أُمِّي اَلثَّانِيَة، وَكُنْت دَائِمًا مَا أَفْتقد عِنَايَتَهَا وَحَنَانَهَا،

كَمَا كُنْتُ أَعْتَبِرُ زَوْجها (جمال) بِمَثَابَةِ أَخِي اَلْأَكْبَر،

رَددتُ بِسُرْعَةٍ عَلَى اِتِّصَالِهَا وقلت:

- أَهْلاً أُخْتِي اَلْغَالِيَةُ، كَيْفَ حَالُكِ؟

أَتَانِي صَوْتُهَا مُفْعَمًا بِالْبُكَاءِ، وَهِيَ تَقُول:

- كَيْفَ حَالُكَ يَا يوسف؟

اِنْتَابَنِي اَلْقَلَقُ، وَوَقَفت مَكَانِي بلَا حِراك، وَأَنَا أَقُول لَها:

- مَاذَا بِكِ يا أمل؟ أَخْبِرِينِي سَرِيعًا.

رَدَّتْ بِحُزْنٍ وَبِصَوْتٍ يَخْنُقُهُ اَلْبُكَاءُ:

- لَمْ أَكُن أُرِيدُ أَن أحَدِّثك يَا يُوسف وَأثْقِلَكَ بِهَمِّي، وَلَكِنَّكَ أَمَلِي اَلْوَحِيد بَعْدَ اَللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، إن حَالَةَ جمال الصحية صَعْبَة للغاية، فَقَدْ أُصِيبَت قَدَمهُ إِصَابَةً بَالِغَةً، وَهُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى إِجْرَاءِ عَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ عَاجِلَةٍ، وَإِلَّا سَيُضْطَر اَلْأَطِبَّاءُ إِلَى بَتْر قَدَمه، كَمَا أن تَكْلِفَةَ اَلْعَمَلِيَّةِ اَلْجِرَاحِيَّةِ قَدْ تُقَارِبَ اَلْمِئَةَ ألف، وَهَذَا اَلْمَبْلَغُ غَيْر مُتَاح لَدَيْنَا مَعَ كُلِّ اَلْجُهْدِ اَلَّذِي بَذَلْنَاهُ مَعَ اَلْجِيرَانِ وَالْأَصْدِقَاءِ لنجمع حتّى بعضه.

كُنْت أسْتمع إِلَى هَذِهِ اَلْأَخْبَارِ وَأَنَا أَشْعُرُ بِاخْتِنَاقٍ شَدِيدٍ، وَمَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ أَشْعُرُ بِازْدِيَادِ هَذَا اَلِاخْتِنَاقِ، كَأنهُ حَجَرٌ جَثَمَ عَلَى أَنْفَاسِي فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَكَلَّمَ.

آثرتُ الصمتَ لِلَحْظَةٍ ثُمَّ قُلْتُ:

- أَنْتِ تَعْلَمِين حَالَتِي اَلْمَادِّيَّة، وَأن مُدَّخَرَاتِي قليلة ولا تكفي للمساعدة، إن قَلْبِي مَعَكِ، وَلَكِنِّي لَا أَدْرِي مَاذَا أفْعَل؟

صَدمَتَهَا إِجَابَتِي، وَظَهَرَ هَذَا جَلِيًّا فِي صَوْتِهَا وتَغَيّرت طَرِيقَة كَلَامِهَا وَتَوَقُّف بُكَائِهَا، وقَالَت:

- إنّني فقط أشكو لَكَ هَمِّي يَا يُوسُف لأنكَ أَخِي وَابْنِي، أَنَا لَا أُرِيدُ منكَ شَيْئًا، وَأَنَا أَعْلَمُ أن اَللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ من سَيُسَاعِدُنَا.

ثُمَّ أَنْهَت اَلْمُكَالَمَة.

نَدمتُ عَلَى طَرِيقَةِ رَدِّي عَلَيْهَا، وَكَيْفَ لم أستطع احْتواء حُزْنَهَا أَوْ أَنْ أُحَاوِلَ أَنْ أُسَاعِدهَا، وَقُلْتُ لِنَفْسِي:

- مَاذَا فَعَلْت يَا يُوسف؟ أَهَذِهِ طَرِيقَة يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِهَا مَعَ أُخْتِكَ.
حَاولت أَن اتَّصلَ بِهَا مِرَارًا وَتكْرَارًا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُجِب على اتصالاتي.

-٤-

مريم

أَخِيرًا وَصلتُ إِلَى مَقَرِ عَمَلِي . . .
وَمَا أَنْ وَصلت حَتَّى وَجَدتهَا أَمَامِي، حَيْثُ كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ اِسْتَقْبَلَنِي،
إنهَا (مريم) زَمِيلَتِي بِالْعَمَلِ، وَهِيَ اَلْفَتَاةُ اَلْوَحِيدَةُ اَلَّتِي أُعْجِبت بِهَا . . .
وَأَحْبَبْتُهَا . . .
أَحْبَبْتُ فِيهَا نَظْرَتهَا اَلْبَرِيئَة وَقَلْبَهَا اَلْكَبِيرَ اَلَّذِي يَتَّسِعُ لِإِسْعَادِ اَلْعَالَمِ كُلِّهِ.
أَحْبَبْتُ فِيهَا طِيبَتَهَا وَأَخْلَاقَهَا وَحُبَّهَا لِعَمَلِ اَلْخَيْرِ . . .
لَم أخْبرهَا بِمَشَاعِرِي أَبَدًا حَيْثُ كُنْتُ أَشْعُرُ أنني لَا أَستحقُ كُل هَذَا اَلنَّقَاءِ.
كُنْت أُدْرِكُ أنهُ يَجِبُ عَلَى اَلشَّخْصِ اَلْمُحِبِّ أَنْ يَكُونَ لَائِقًا بِمَنْ يُحِبُّهُ حَتَّى يَكُونَ قَادِرًا عَلَى إِسْعَادِهِ وَإِعْطَائِهِ حقّه.
كُنْت يَوْمِيًّا أَدْعُو اَللَّه أَن يُغَيَّرنِي وَيَجْعَل لِي قَلْبا وَرُوحًا تُنَاسِب جَمَال قَلْبِهَا وَرُوحِهَا، وَأن أَصل إِلَى أُمْنِيَتِي بِأَنْ أَكُون لَائِقًا وَمُسْتَحقًّا لِهَذَا اَلْقَلْبِ اَلْكَبِيرِ.
نَظَرَت مريم بِبَرَاءَةٍ مُعْتَادَةٍ لَا تَخْلُو من بَعْضِ اَلْقَلَقِ، وَقَالَت:
- أَهْلاً يوسف، لِمَاذَا تَأَخَّرَت اَلْيَوْم؟

فَكَّرت قَلِيلاً أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهَا مَا حَدَثَ بَيْنِي وَبَيْنَ أمل، وَلَكِنِّي خَجلت من نفسي،

فَوَقفتُ أَمَامهَا صَامِتًا، وَلَمْ أجِبْ ولم أنطق.

استقبلت صمتِي بِتَعَجُّبٍ وشت به ملامحُها،

ثُمَّ أكملت حديثها:

- لَقَدْ سَأَلَ مُدِيرُ اَلْحِسَابَاتِ بِالشَّرِكَةِ عَنْكَ كَثِيرًا، لَقَدْ اُضْطُرِرْتُ إِلَى اَلْقِيَامِ بِجُزْءٍ من عَمَلِكَ، وَأَخْبرتهُم أَنِّي مَسْئُولَةٌ عَنْ عَمَلِكَ حَتَّى تَحْضُر.

رَددت بِسُرْعَةٍ وَدُونَ تَفْكِيرٍ:

- شُكْرًا لَكِ، لَمْ يَكُن هُنَاكَ دَاعِيًا لِذَلِك.

وبمجردِ خروجِ تلكَ الكلماتِ من فمي، نَدمتُ ندمًا شديدًا بَعْد أَنْ رَأَيْتُهَا وَهِيَ تُحَاوِلُ اخفاء اَلْأَلَمِ اَلظَّاهِرِ عَلَى وَجْهِهَا،

فقلتُ محاولًا أَن أخفف من أَلمِها:

- أَقْصد أنني أَشْكُرُكِ لتحمّلكِ عملِي أثناء غيابِي.

قَالَت محاولة أَنْ تَعْرِف مَا يَدُورُ بِخَاطِرِي:

- هَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ مَا يُزْعِجُكَ؟

رددت قائلاً:

- لَا، أَبَدًا.

قَالت مندهِشةً:

- مُنْذُ مُدَّةٍ وَأَنَا أَشْعُرُ أنكَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ شَيْئًا مَا، هَلْ هَذَا اَلشُّعُور صَحِيح؟

انتابني الصَمْت، وَانْدَهشت من سُؤَالِهَا هَذَا فَأَجَبْت بِسُرْعَةٍ، وأنا متلعثمٌ محاولًا الهروب من السؤالِ:

- رُبَّمَا نُنَاقِشُ هَذَا اَلْأَمْرِ لَاحِقًا . . . اعذريني فأنا َأرِيدُ أَنْ أكْمل اَلْعَمَل اَلَّذِي طَلَبَهُ اَلْمُدِير.

صَمَتَت مريم لِبُرْهَةٍ ثُمَّ قَالَت:

- بِالطَّبْعِ، يمكنك إكمال عملك.

ثُمَّ تَرَكَتنِي وَذَهَبَت إِلَى مَكْتَبِهَا.

-٥-

عمار

وَصلت إِلَى مَكْتَبِي،

ثُمَّ نَادَيْتُ (عَمَّار)،

(عَمَّار) هُوَ عَامِلُ اَلْخِدْمَةِ اَلْخاصّ بِإِدَارَةِ اَلْحِسَابَاتِ، وهو شَابٌّ صَغِيرٌ نَحِيلٌ، يُمَيِّزُهُ أَدَبه اَلشَّدِيد وَأَخْلَاقهُ اَلْعَالِيَةُ.

أَتَى عمَّار سَرِيعًا، وَأَلْقَى اَلتَّحِيَّةَ ثُمَّ قَالَ:

- مرحبًا بِكَ أُسْتَاذ يوسف، أَخْبرنِي بِطَلَبَاتِكَ حتى أحضرهَا لَكَ فَوْرًا.

قُلْتُ، وَأَنَا حتّى لَا أنْظُرُ إِلَيْهِ:

- أرِيدُ فِنْجَانًا من اَلْقَهْوَةِ وَشَطِيرَة جُبْن.

رد بِسُرْعَةٍ وهو يتّجه إلى الخارجِ:

- سَوْفَ تَكُونُ طَلَبَاتكَ عَلَى مَكْتَبِكَ حالًا.

وَبِالْفِعْل لَمْ تمر دَقَائِق، حَتَّى أَحْضَرَ عَمَّار اَلْقَهْوَةَ وَالشَّطِيرَة، وَمَا أَنْ تَذَوَّقَت اَلْقَهْوَةً حَتَّى صَرخت فِيه غاضبًا حَيْثُ لَمْ تَكُنْ من اَلنَّوْعِ اَلَّذِي أُفَضِّلُهُ.

حَاوَلَ عَمَّار عَبَثًا أَنْ يُهدأ من اِنْفِعَالِي أَوْ يَقُوم بِإِحْضَارِ قَهْوَةٍ أخْرى من اَلنَّوْعِ اَلَّذِي أُفَضِّلُ، وَلَكِنْ كَانَ اَلْغَضَبُ قَدْ غَلَبنِي، وظللت أصرخ فِي وَجْهِهِ وَأتَّهمهُ بِالْإِهْمَالِ، حَتَّى انصرفَ حَزِينًا من أَمَامِي، وَتَكاد دُمُوعَهُ أَنْ تَنْهَمِرَ وَهُوَ يُخْفِيهَا لِكَيْلَا يَرَاهَا أَحَدٌ. لَمْ تَكُن تِلْكَ اَلْمَرَّة اَلْأُولَى اَلَّتِي يَحْدثُ فيها هَذَا بَيْنَنَا،

ولكن قد تكرّر هذا كثيرًا خاصةً في الأيامِ الأخيرةِ.

بِمُجَرَّد اِنْصِرَافِ عَمَّار من أَمَامِي... شَعرتُ بِالنَّدَمِ عَلَى غَضَبِي وَانْفِعَالِي... وَقُلْتُ لِنَفْسِي:

- مَا هَذَا اَلَّذِي فَعلت؟ هل أستحقُ أَن أَحْيَا سَعِيدًا، وَأَنَا أسْقِي اَلْحُزْنَ لِكُل منْ حَوْلِي؟ هل أَنَا بِهَذِهِ اَلْأَفْعَالِ أحمل قَلْبًا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَحِقَّ قَلْب مريم؟ وَهِيَ اَلَّتِي تُسَاعِدُ اَلْجَمِيعَ هُنَا وَتُسَاعِدُ اَلْمُحْتَاجِينَ وَالْمَرْضَى وَغَيْرِهِمْ خَارِج اَلْعَمَلِ.

تَنهَّدتُ مَرَّةً أُخْرَى يَائِسًا من نَفْسِي،

ثُمَّ عُدْتُ إِلَى عَمَلِي.

-٦-

مسعد

اِنْشَغَلتُ طَوَالَ اَلْيَوْمِ فِي عَمَلِي . . .

كُنْتُ أحَاوِلُ أَنْ أنْهى اَلتَّقْرِير اَلْمَطْلُوب من مُدِيرِي، وَكَانَ هُنَاكَ عَدَدٌ من اَلْبَيَانَاتِ مَا زَالَت مَطْلُوبَة . . .

وَفِي ذُرْوَةِ اِنْشِغَالِي . . .

إذَا بِي أسْمَعُ رَنِينَ هَاتِفِي اَلْمَحْمُولِ.

نَظرتُ إِلَى شَاشَةِ هَاتِفِي لَأَعْرِف منْ اَلْمُتَّصِلِ، حَيْثُ تَمَنَّيْتُ أَنْ تَكُونَ أَمل، فَإِذَا بِهِ أَحَدُ اَلْأَصْدِقَاءِ اَلْقُدَامَى وَهُوَ (مسعد).

كَانَ (مسعد) صَدِيقِي، حَيْثُ دَرَسْنَا مَعًا، وَتَخَرجنَا مَعًا، وَلَكِن فرّقتنا دُرُوب اَلْحَيَاةِ كَمَا تَفْعَلُ بِكَثِيرٍ من اَلْأَصْدِقَاءِ.

كُنْتُ أشْعُرُ أن وَقْتَ اَلِاتِّصَالِ غَيْر مُنَاسِبٍ، وَلَكِن أحسستُ أن هَذَا اَلِاتِّصَالِ قَدْ يَكُونُ مُخْتَلِفًا بِمَا أنهُ من صَدِيقٍ قديم . . . وَلَرُبَّمَا يغيْرُ منْ حالتي النفسيّةِ فِي هَذَا اَلْيَوْمِ اَلَّذِي زَادَت فِيهِ أَخْطَائِي.

أَتَانِي صَوْته عَبْر اَلْهَاتِفِ قَائِلاً:

- أَهْلاً يوسف، لَقَدْ اِشْتَقْتُ إِلَى جَلْسَتِنَا وَكَلَامنا مَعًا، كَيْفَ حَالُكَ؟

غَمَرَتْنِي اَلسَّعَادَة وَأَنَا أَردُّ قَائِلاً:

- أَهْلاً مُسْعَد، أَنَا أَيْضًا اِشْتَقتُ إِلَيْكَ، أَنَا بِخَيْرٍ، كَيْفَ حَالُكَ أَنْتَ؟

قَالَ بصوتٍ يملأهُ الخجل:

- لقد فَقدتُ وَظِيفَتَي يَا يوسُف، وَأَنَا اَلْآنَ بِلَا وَظِيفَةٍ مُنْذ عِدَّةِ أَشْهُرٍ، وَبَحثتُ كَثِيرًا لَكِن بِلَا جَدْوَى حَتَّى اَلْآنَ، ثُمَّ تَذْكرتُكَ وَقلتُ أنكَ تَعْمَلُ فِي شَرِكَةٍ كَبِيرَةٍ، وَرُبَّمَا يُمْكِنُ أَنْ تُسَاعِدَنِيَ فِي إِيجَادِ وَظِيفَةٍ، أُعْذُرْنِي يَا يوسُف لِاتِّصَالِي من أَجْلِ هَذَا. . . وَلَكِنْ يُعْرفُ اَلْأَصْدِقَاء فِي وَقْتِ اَلشِّدَّةِ.

كُنْتُ أسْتَمعُ إِلَى كَلِمَاتِ مسعد فِي صَمْتٍ، وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي أنهُ لَمْ يَتَّصِل بي لِيُقَابِلنِي أَوْ يَسْأَلُ عَنِّي، لَقَدْ اِتَّصَلَ فَقَطْ من أَجْلِ مَصْلَحَتِهِ الشخصيةِ، وَهِيَ اَلْبَحْثُ عَنْ وظيفةٍ.

أَنَا أَعْرِفُ تماماً أنهُ لَا يوجد وظائف متاحة بِالشَّرِكَةِ بِالْفِعْلِ، ولا أعلمُ كيفَ أساعدُهُ في طَلبِه؟

بَعد أَنْ أَنْهَى مسْعَد كَلَامهِ، رَددتُ بِهُدُوءٍ:

- أَنَا أَعْلَمُ أنهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ فُرَصٌ وَظِيفِيَّةٌ هُنَا فِي مَقَر عَمَلِي فِي هَذِهِ اَلْفَتْرَةِ، وَلَكِنِّي سَوْفَ أَسْأَلُ مُجَدَّدًا فِي إِدَارَةِ اَلْمَوَارِدِ اَلْبَشَرِيَّةِ إِن كَانَ هُنَاكَ فُرَصٌ وَظِيفِيَّةٌ تَصْلُحُ لَكَ، وَاسْتَمرَّ أَنْتَ أَيْضًا فِي اَلْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ من جِهَتِكَ، وَأَتَمَنَّى لَكَ كُل اَلتَّوْفِيقِ.

رَدَّ مسعد:

- شُكْرًا لَكَ يا صَدِيقِي، أَنَا مُمْتَنٌّ لَكَ وَفِي اِنْتِظَارِ رَدِّكَ عليّ.

ثُمَّ أَلْقَى اَلتَّحِيَّةَ، وَأَنْهَى اَلْمُكَالَمَةَ.

أَمَّا أَنَا فَقَدْ عُدْتُ إِلَى اِنْشِغَالِي بعَمَلِي مَرَّةً أُخْرَى.

-٧-

دعوة

شَعرتُ بِالْإِجْهَادِ اَلشَّدِيدِ وَبِثِقلٍ فِي رَأْسِي،
فَقَرَّرتُ أَنْ أَسْتَرِيحَ قَلِيلاً...
وَلكني مَا زِلْتُ مُتَذَمِّرًا من نَمَطِ هَذَا اَلْعَمَلِ اَلطَّارِئِ اَلَّذِي يُسَبِّبُ اَلْإِجْهَاد، وَمنْ جهةٍ أُخرى لَا أَسْتَطِيعُ أَيْضًا أَنْ أخْرجهُ بِالْجَوْدَةِ اَلَّتي أَوَدُّ أَن يَخْرُجَ بِهَا، فَالْأَعْمَالُ اَلطَّارِئَةُ لَا يُمْكِنُ اَلتَّخْطِيطُ أَو اَلْإِعْدَاد لَهَا، أُمَّا الحصول على اَلْإِبْدَاع وَالْجَوْدَة فَيكُون مَعَ اَلْأَعْمَالِ اَلْمُهِمَّةِ غَيْرِ اَلطَّارِئَةِ.
تَنَهدتُ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ قَرَّرتُ أَن أَخْرج لِأَتَنَفَّس بَعْضَ اَلْهَوَاءِ اَلنَّقِيّ، وَأشْترى زُجَاجَةَ مَاءٍ، ثُمَّ أَعُودُ لِأُكْمِل عَمَلِي.
وَمَا أَنْ أخذتُ اَلْإِذْنَ بِالِاسْتِرَاحَةِ لِعِدَّةِ دَقَائِق وَخَرجتُ من بَابِ اَلشَّرِكَةِ حَتَّى اِصْطَدَمَ بِي رَجُلاً كَبِيرًا فِي اَلْعُمْرِ أَبْيَض الشعرِ وَالشَّارِبِ وَاللِّحْيَةِ...
ومن شِدَّةِ اَلِاصْطِدَامِ شَعرتُ كم أنهُ قَوِي اَلْبُنْيَانِ كمَا لو كانَ شابًّا.
تَوَقُّف اَلرَّجل أَمَامِي، وَنَظَرَ إِلَيّ نَظْرَةً طَوِيلَة.
كُنْتُ مُنْتَظَرًا أَنْ يَصْرُخَ فِي وَجْهِي غَاضِبًا، وأن يُعَنِّفُنِي عَلَى سُرْعَتِي فِي اَلْحَرَكَةِ أَوْ إِهْمَالِي، وَلَكِنَّهُ اِبْتَسَمَ إِلَيّ وَأَخْرجَ وَرَقَةً كَانَت ذَاتَ لَوْنٍ أصفر مُبْهِج، وَوَضعهَا فِي يَدِي وَأغْلقها عَلَيْهَا...

أَشَارَ بِعَيْنَيْهِ إِلَى اَلْوَرَقَةِ اَلَّتِي بِيَدِي ثُمَّ تَرَكَنِي وَانْصَرَفَ، وَهُوَ لَمْ يَنْطِقْ ولو بكَلِمَة وَاحِدَة...

وَقفتُ مَذْهُولاً مِمَّا حَدَث...

حَاولتُ أَنْ أنَادِيَ عَلَيْهِ...

وَلَكِنَّهُ اِخْتَفَى سَرِيعًا فِي شَارِعٍ جَانِبِيّ.

نَبَتَت آلَافُ اَلْأَسْئِلَةِ فِي عَقْلِي...

منْ هَذَا اَلرَّجُل؟ وَهَلْ يَعْرِفنِي؟ وَمَا هِيَ قِصَّتُهُ؟ وَمَا سرُّ هَذِهِ اَلْوَرَقَةِ اَلَّتِي بيدي؟

وَلَمْ أكن أعْلَمُ وَقْتَهَا أن هَذِهِ اَلْوَرَقَةِ هِيَ اَلَّتِي سَتُغَيِّرُ حَيَاتِي وَإِلَى اَلْأَبَد...

كدتُ أَفْتح اَلْوَرَقَة التي بيدي، وَلَكِنّي أَجَّلتُ اَلْأَمْرَ لِضِيقِ اَلْوَقْتِ وَفضّلتُ الانتظار حتى أَعُودُ إِلَى مَنْزِلِي، فافْتَحهَا وَأَعْرِفُ مَا اَلْأَمْر...

كان يجب عَلَيّ الآن شِرَاءَ اَلْمَاءِ، وَالْعَوْدَة إِلَى مَقَرّ اَلشَّرِكَةِ لِإِنْهَاء عَمَلِي.

-٨-

قصتي مع مريم

عُدْتُ فِي هَذَا اَلْيَوْمِ إِلَى مَنْزِلِي مُرْهقًا مُتْعَبًا . . .

جَلستُ عَلَى أَرِيكَتِي وَكُل خَلَايَا عَقْلِي تصرخ من اَلْأَلَمِ . . .

أَرحتُ رَأْسِي عَلَى إِحْدَى اَلْوَسَائِدِ، وَقَدْ وَضعتُ يَدِي خَلْفَها . . .

بَدأتُ أَشْعُرُ بِالِارْتِيَاحِ قَلِيلاً . . .

وَبَدأتُ أَتَذَكَّرُ قصّتي مع مريم . . .

كانت أَحْدَاثُ قِصَّتِنَا وَتَعَارُفِنَا تجْرى وتتدفق أَمَامِي كَالنَّهْرِ . . .

بدأت القصةُ مُنْذُ عَامَيْنِ . . .

كَانَتْ أَوَّل مَرَّةٍ أَرَى فِيهَا مريم.

كَانَ هذا فِي مَقَرِّ اَلْعَمَلِ . . . عِنْدَمَا رَأَيْتُهَا كانت تُرَبِّتُ عَلَى كَتِفِ إِحْدَى عَامِلَاتِ اَلْخِدْمَةِ، وَتَقول:

- لَا يَهُمُّكِ عزيزتي، مَا حَدَثَ كَانَ بِغَيْرِ إِرَادَتِكِ، وَسَأَتَدَبَّرُ اَلْأَمْر.

لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ وَقْتَهَا ما حدث، فَقَطْ كُنتُ أَعْلَمُ أن مريم تُسَاعِدُهَا، وَتحاولُ أَن تُزِيل عَنْهَا اَلْقَلَقَ وَالْحُزْنَ،

وما أكّد لي هذا أنّني سَمعتُ عَامِلَةِ اَلْخِدْمَةِ بعدها تدْعُو لها.

وَمن يَوْمِهَا أَدْركتُ كَم أن لها قَلْبًا رَقِيقًا وَكَبِيرًا.

ومنْ بعدِ هذا اليومِ تَكَرَّرَتْ تِلْكَ اَلْمَوَاقِف أَمَامِي كَثِيرًا، ودائمًا كانت مريم هي القَلب الرحِيم والشَخص المبَادر الذي يحتَويها. . .

كَانَت أَفْعَالهَا ومواقفها تُعَبِّرُ عَنْ شَخْصِيَّة مُحبَّةٍ لِلنَّاسِ وَلِلْخَيْرِ، وتَجْعَل اَلْعَطَاء عَلَى قِمَّةِ أَوْلَوِيَّاتِ حياتها.

كُنْتُ أَقِفُ يَوْمهَا فَقَطْ أُشَاهِدُ،

ثم اِلْتَفَتَت مريم وَنَظَرَتْ إِلَيّ،

حِينَهَا شعرتُ أنني اِرْتحلتُ إِلَى بِلَادٍ خَضْرَاء جَمِيلَةٍ . . .

وأنني أسرتُ هُنا... في تلك العينين...

وأن اَلْحَيَاةَ من حَوْلِي تَحَوَّلَتْ فَجْأَة إِلَى رِحْلَةٍ لِلسَّعَادَة. . .

أحسستُ بِالْبَهْجَةِ وَالتَّفَاؤُلِ وَاتَّسَعَ صَدْرِي اَلَّذِي عَادَةً مَا كَانَ يَضِيقُ . . .

شعرتُ بِالرَّحَابَةِ والطمأنينةِ والأمل. . .

وكَانَت كل تلك المَشَاعِر جَدِيدَة عَلَى روحِي وَنَفْسِي وعَقْلي،

إنهَا اَلرِّحْلَةُ اَلَّتِي دَوْمًا كُنْتُ أُرِيدُهَا وأحلم بها، وأتمنّاها . . .

وَبَيْنَمَا أَنَا غَارِقٌ فِي هَذِهِ اَلْمَشَاعِرِ، أَيْقَظَنِي صَوْتُ مريم وَهِيَ تَقُول:

- أَهْلاً بِكَ، هَلْ أَنْتَ اَلْمُوَظَّفُ اَلْجَدِيدُ؟

أَجَبْتُهَا، وأنا أُحَاول أنْ ألملم نفسِي وأفكارِي:

- نعم، أَنَا يُوسف الموظف الجديد.

رَدَّت مرّحبة:

- أَهْلاً بِكَ أُسْتَاذ يوسف، وَأَنَا زميلتك مريم، يُسْعِدُنِي أَن أَدُلَّكَ عَلَى مَكْتَبِكَ، إنهُ هُنَاكَ فِي هَذِهِ اَلْجِهَة.

ثُمَّ أَشَارَت إِلَى مَكْتَبِي لترشدنِي إليه.

من يَوْمِهَا شعرتُ أنني أَخِيرًا وَجدتُ مَن يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رَفِيقًا لِدَرْبِي.

شعرتُ أن شَيْئًا مَا قَدْ تَسَلَّلَ لِقَلْبِي لِيَنْبُتَ وُرُودهُ وَأَزْهَارهُ وَيُحْيِيهُ من جَدِيدٍ.

كُنْتُ أَتَابِعُ كَلِمَاتهَا وَأَفْعَالهَا مَعَ اَلْجَمِيعِ . . .

كَانَتْ ذَاتَ أَدَبٍ وَأَخْلَاقٍ عَالِيَةٍ... طَيِّبَة اَلْقَلْبِ وَالنَّفْسِ... كَمَا كَانَتْ لَهَا قُدْرَةٌ كَبِيرَةٌ وَمُدْهِشَةٌ عَلَى اَلتَّسَامُحِ وَالتَّوَاضُعِ.

بَدَأَت مريم تُلَاحِظُ اِهْتِمَامِي بِها وبِمَا تَفْعَلُ . . .

وَلَكِنِّي أَبَدًا لَم أخْبرهَا بِشَيْءٍ عن مشاعرِي، فقد فَضّلتُ اَلتَّرَيُّثَ قليلاً.

كُنْتُ أرِيدُ أَنْ أَتَأَكَّد من كَوْنِي لَائِقًا بِهَا... لا أريدُ أنْ أكون ثقلاً عليها في حياتِها، ولكنّي أريدُ أن أكون عوناً لها.

حاولتُ أَن أشاركُهَا فِعْلَ اَلْخَيْرِ،

فَسَألتهَا ذَات مَرَّةٍ:

- هَلْ يُمْكِنُ اَلْمُشَارَكَة فِي فِعْلِ اَلْخَيْرِ بِمَبْلَغٍ قَلِيلٍ من اَلْمَالِ؟

تَهَلَّلَت أَسَارِيرهَا، وَكَأن هَذَا اَلتَّبَرُّع يَذْهَبُ إِلَيْهَا هِيَ، وَقَالَت:

- يُمْكِنُكَ فِعْل اَلْخَيْرِ حَتَّى دونَ مَال، لكن فَقَطْ إنْ أَرَدْت هذا!

ظَهَرَت اَلدَّهْشَة عَلَى وَجْهِي، وَقلتُ:

- وَهَلْ يُمْكِنُ فِعْل اَلْخَيْرِ دُونَ مَالٍ؟

- نعم، بالطبع يمكن.

- وَكَيْفَ يَكُون هَذَا؟

- يُمْكِنُكَ اَلتَّبَرُّعُ بِمَجْهُودِكَ أَوْ بِوَقْتِكَ، هُنَاكَ اَلْعَدِيدُ من اَلْمُؤَسَّسَاتِ اَلْخَيْرِيَّةِ اَلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَقُومَ بِالْمُسَاعَدَةِ فِي عَمَلِها والتبرع بِوَقْتِكَ في أعمالِها الأُخرى، فأنت محاسبٌ يُمكنكَ أَن تعْمل بقسمِ الحساباتِ في إِحدى المستشفياتِ أو المؤسساتِ الخيريّةِ دون أجرٍ، إنهُ نَوْعٌ من اَلتَّطَوُّعِ وَهُوَ يُمَاثِلُ اَلتَّبَرُّع، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَقُومَ بِهِ دُونَ حَتَّى أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أيّ مَال لديك.

- هَذَا رَائِعٌ، وهي فكرةٌ جديرةٌ بالتنفيذ.
- إنني عَلَى سَبِيلِ اَلْمِثَالِ أُشَارِكُ بِوَقْتِي وَجهْدِي كَمُحَاسبة مَعَ عَدَدٍ من اَلْمُسْتَشْفَيَاتِ اَلْخَيْرِيَّةِ، وَمن بَيْنِهَا مُسْتَشْفَى مُخَصَّصَة لِعِلَاجِ اَلْأَطْفَالِ بِالْمَجَّانِ.

كان كلامُها عن التطوّع قد زَادَ من إِعْجَابِي بها كَثِيرًا، وَشَدَّ اِنْتِبَاهِي وجود هَذِهِ اَلْمُسْتَشْفَى اَلَّتِي تُعَالِجُ اَلْأَطْفَالَ مجَّاناً،

وَرَاقَت لِي فِكْرَة أَنْ أَتَطَوَّعَ بِبَعْضِ وَقْتِي لِهَذِهِ اَلْمُسْتَشْفَى فَقُلْتُ متسائلا:

- وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ أَتَطَوَّعَ أَنَا أَيْضًا وأساهمُ بوقتِي منْ أجلِ مساعدة مُسْتَشْفَى عِلَاجِ اَلْأَطْفَالِ بِالْمَجَّان؟

كَانَتْ نَظْرَتُهَا تُعَبِّرُ عَن سَعَادَتِهَا بِسؤالي، وَقَالَتْ مبتهجة:

- بالتأكيدِ يمكنكَ هذا، سَوْفَ أَتَكَلَّمُ مَعَ مُدِيرِ اَلْمُسْتَشْفَى وَأَعُودُ إِلَيْكَ بِالتَّفَاصِيلِ.

تَرَكَتْنِي وَذَهَبَتْ لِعِدَّةِ دَقَائِق، ثُمَّ عَادَتْ بِمُوَافَقَةِ مُدِيرِ اَلْمُسْتَشْفَى عَلَى أَنْ أَذْهَب يَوْم اَلْجُمْعَة من كُلِّ أُسْبُوعٍ لِلْمُسَاعَدَةِ وَالتَّطَوُّعِ فِي قِسْمِ اَلْحِسَابَاتِ بِالْمُسْتَشْفَى.

ودعماً منْها لي فقدْ اِنْتَظَرَتْنِي بِالْيَوْمِ اَلْأَوَّلِ لِي فِي المستشفى . . .

وَقَامَتْ بِاسْتِقْبَالِي وَإِرْشَادِي لِطَرِيقَةِ اَلْعَمَلِ بِالْمُسْتَشْفَى وَالْمَهَام اَلَّتِي عَلَى أَنْ أنْهِيهَا . . .

وَأَوْصَلَتْنِي إِلَى مَكْتَبِي كما فعلت سابقاً في مكانِ عملِنَا الأصليّ، ثُمَّ ذَهَبَتْ.

كُنْتُ آملُ أَنْ يَكُونَ تَطَوُّعُنَا مَعًا، وَلَكِنِّي عَرفتُ أنهَا تَذْهَبُ إِلَى اَلْمُسْتَشْفَى فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى.

ظَلَلْتُ مُتَطَوِّعًا وَمُنْتَظِمًا فِي اَلذَّهَابِ إِلَى اَلْمُسْتَشْفَى عِدَّةَ أَشْهُرٍ. وَلَكِنّي بعدها شعرتُ بِالْمَلَلِ، وَعَدَمِ اَلْقُدْرَةِ عَلَى اَلِاسْتِمْرَارِ فَاعْتَذرتُ لِمُدِيرِ اَلْمُسْتَشْفَى واَلَّذِي قبل اِعتذَاري وكَرَّمَنِي بِحَفْلٍ صَغِيرٍ وَشَهَادَة تقديرٍ وَدِرْعٍ تذكاري يشيد بما قدمته لهم.

مَرَّت اَلْأَيَّامُ، وَمَا زِلْتُ أَشْعُرُ أَنِّي لَا زَالَ يَنْقُصُنِي اَلْكَثِير من اَلْعَمَلِ لِأَكُونَ لَائِقًا بِمِثْلِ هَذِهِ اَلْفَتَاةِ.

سألتُها مرةً ثانيةً إن كان هُنَاكَ فُرْصَة تَطَوُّعٍ أُخْرَى قَصِيرَةٍ، وَدُونَ اِلْتِزَامَاتٍ طَوِيلَةٍ،

نَظَرَت هَذِهِ اَلْمَرَّةِ بِهُدُوءٍ، وَقَالَت ناصحة:

- فُرْصَةُ اَلتَّطَوُّعِ بِمُسْتَشْفَى اَلْأَطْفَالِ هِيَ أَفْضَلُ من غَيْرِهَا، وَمَا دُمْت لَا تَزَالُ تُرِيدُ اَلتَّطَوُّعَ فَحَاول أَنْ تَعُودَ إِلَى اَلْمُسْتَشْفَى مَرَّةً أُخْرَى، لَقَدْ اُضْطُرِرْتُ إِلَى زِيَادَةِ أَيَّامِي بِهَا بَعْدَ رَحِيلِكَ حَتَّى لَا يَشْعُرُوا بِأَيِّ نَقْصٍ.

شعرتُ بِالْخَجَلِ من مَوْقِفِي،

بِالْفِعْلِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سَبب مقنع لِمغادرتِي العَمل بالْمُسْتَشْفَى سَرِيعًا.

قُلْتُ لَهَا معتذرا:

- أرجو أن تعذُرِينِي، كان هَذَا هو أَوَّل أعمالي التَطَوُّعِيّة، وَلَقَدْ أرهقني ثِقل اَلِالْتِزَامِ، وكما تعلمِي فإنّ اَلْأَعْمَال في الشركة قد زَادَت أَيْضًا بِالْفَتْرَةِ اَلْأَخِيرَةِ مِمَّا جَعَلَنِي لَا أَسْتَطِيعُ الِانْتِظَام فِي اَلتَّطَوُّعِ.

ثم نَظرتُ خَجلاً إِلَى اَلْأَرْضِ.

أَعْتَقِدُ أنهَا شَعرت بِمَوْقِفِي، فَهَزَّت رَأْسَهَا مُتَفَهِّمَةً ثُمَّ قَالَت:

- من اَلطَّبِيعِيّ أَنْ تَتْرُكَ عَمَلاً حَتَّى وَإِنْ كَانَ تَطَوُّعِيًّا دُونَ أَسْبَابٍ أَوْ لِأَسْبَابِكَ اَلشَّخْصِيَّةِ، فَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ مُرْتَاحٍ فِي بِيئَةِ اَلْعَمَلِ، أَوْ أَن اَلْمَكَانَ لَا يُعْجِبُكَ، أَوْ أن ظُرُوفَكَ فِي هَذَا اَلْوَقْتِ لَا تَسْمَحُ لَكَ . . . فَكُلُّ هَذَا طَبِيعِيٌّ وَمُعْتَادٌ، وَلَكِنَّ نَصِيحَتِي لك هِيَ أَلّا تَدَعُ هَذَا يُبْعِدُكَ عَنْ اَلْعَطَاءِ وَعَمَلِ اَلْخَيْرِ خَاصَّةً إِذَا كَانَ هَذَا لِمُسَاعَدَةِ اَلْمَرْضَى وَالْمُحْتَاجِينَ.

سَعِدْتُ لِتَفَهُّمِهَا مَوْقِفِي وَقُلتُ راجياً:

- لَكِنْ، هَلْ هُنَاكَ فُرْصَةٌ وَلَوْ لِيَوْم وَاحِدٍ للتطوع؟

وَضَعَت يَدُهَا عَلَى رَأْسِهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَتَذَكَّرَ شَيْئًا، ثُمَّ لَمعت عَيْنَاهَا وَقَالَتْ بسعادة:

- هُنَاكَ حَفْلٌ سَوْفَ يَجْمَعُ مُسْتَشْفَى اَلْأَطْفَالِ وَإحدى مؤسّسات مساعدةِ اَلْأَيْتَامِ، وَسَوْفَ يُقَامُ فِي إِحْدَى اَلْحَدَائِقِ اَلْعَامَّةِ . . . وَلَكِنْ نَحْتَاجُ إِلَى إِعْدَادِ فقرَاتٍ مُبْهِجَةٍ تُعِيدُ اَلْبَسْمَة إِلَى وُجُوهِ اَلْأَطْفَالِ

اَلْأَيْتَامِ وَالْمَرْضَى، مَا رَأْيُكَ أَنْ تَكُونَ مَعَنَا وَتُعدّ بَعْضَ اَلْفقرَاتِ لِهَذَا اَلْيَوْمِ؟

في البدايةِ قد استصعبتُ الفِكْرَة، وَلَكِنّي برغمِ ذلك أَظهرتُ لها سَعَادَتِي اَلشَّدِيدَة كَيْ أرْضِيهَا، وأعيدُ ثقتَها التي كدت أن أفقدها، فقُلْتُ فَوْرًا:

- نَعم، أَتَمَنَّى أَنْ أَكُونَ مَعَكُم في التحضيرِ لهذا اليوم، والمساهمة فِي إِسْعَادِ هَؤُلَاءِ اَلْأَطْفَالِ.
- إِذْاً فقد اِتَّفَقْنَا وَسَوْفَ أبلغُكَ بِالْمَوْعِدِ، واعلم أنّ هَذِهِ اَلْمَرَّةِ لَا أَعْذَارَ لَكَ.

اِبْتسمتُ من قَوْلِهَا ثُمَّ اِنْصرفتُ،

وفي اليومِ التالي أبلغتني موعدَ الحفلِ،

وَظَلَلْتُ عِدَّةَ أَيَّامٍ أعد لِهَذَا اَلْيَوْمِ، وَقَدْ اشتريتُ مَجْمُوعَةَ هَدَايَا شَيِّقَة وَجَمِيلَة لِلْأَطْفَالِ، كَمَا أَعْدَدْتُ مَلَابِس اَلْمُهَرِّجِ، وَتَعَلَّمتُ أَدَاءَ بَعْضِ اَلْأَلْعَابِ وَالفقرَاتِ بِهَذِهِ اَلْمَلَابِسِ.

وَفِي اَلْيَوْمِ اَلْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ذَهبتُ الى مكان الحفلِ،

وَكَانَ يَوْمًا جَمِيلاً بِشَكْلٍ رَائِعٍ . . .

وَرَغْم إِرْهَاقِي من اَلْحَرَكَاتِ وَالْأَلْعَابِ اَلْكَثِيرَةِ اَلَّتِي أَدَّيْتُهَا فِي هَذَا اَلْيَوْمِ إِلَّا أنني كُنْتُ سَعِيدًا جدا...

كُنْتُ سَعِيدًا بِبَسْمَاتِ وَضحْكَاتِ اَلْأَطْفَالِ اَلْمَرْضَى وَالْأَيْتَامِ . . . وَسَعدتُ أَكْثَر بِوُجُودِ مريم فِي هَذَا اَلْيَوْمِ . . . بَلْ بِوُجُودِهَا بِحَيَاتِي... وبِكُلِّ هَذَا اَلْخَيْرِ اَلَّذي تَقُومُ بِهِ . . .

سَعدتُ بِضحْكَاتِهَا اَلنَّابِعَة من اَلْقَلْبِ . . .

سَعِدْتُ لِسَعَادَتِهَا بنَجَاحِ هَذَا اَلْيَوْمِ، وَلسَعَادَةِ اَلْأَطْفَالِ حَوْلهَا وَهِيَ تَلْعَبُ مَعَهُمْ . . .

أدركتُ يومها كَم أن اَلْعَطَاءَ يَجْلِبُ اَلسَّعَادَةَ . . .

وَكَيْفَ أن مُشَارَكَةَ هَذِهِ اَلسَّعَادَةِ يَزِيدُهَا، وَيمكنُ أنْ تَتَدَفَّق كَالشَّلَّالِ فِي حَيَاةِ كُلِّ من يُشَارِكُهَا . . .

شعرتُ أن اَلْحَيَاةَ بَدَأَتْ تَخْتَلِفُ من وُجْهَةِ نَظَرِي . . .

-٩-

حديث مع مريم

أَتَى اَلْيَوْم اَلَّذِي كُنْتُ أَخْشَى قُدُومهُ سَرِيعًا . . .

فَكُنْتُ أَعْلَمُ يَقِينًا أن مَريم هِيَ اَلْفَتَاةُ اَلْمِثَالِيَّةُ لِأَيِّ رَجُلٍ يَبْحَثُ عَنْ زَوْجَةٍ.

وَهَا قَدْ وَصَلَ طَالِبُ اَلْوِصَالِ إِلَى بَيْتِها وَتَقَدَّمَ لَهَا . . .

إنّه شَابٌّ غَنِيٌّ وسيمٌ كَمَا أَخْبَرَنِي زُمَلَاءُ العملِ.

كانت مشاعري مضطّربةٌ تميلُ إلى الإحباطِ والقلقِ، فلا دراية لي بمَا سيحدثُ، ولا إنْ كانَ هذَا الفصل هُو نهاية قصّتي مع مريم.

فِي اَلْأَيَّامِ اَلتَّالِيَةِ تَجَنَّبتُ أَنْ أحَادثهَا وَتَجَنَّبتُ رُؤْيَتُهَا مَا اِسْتَطَعْتُ، حَتَّى لَا تُلَاحِظُ عَلَامَات اَلْقَلَقِ اَلْمُرْتَسِمَة عَلَى وَجْهِي.

كُنْتُ خِلَال هَذِهِ اَلْأَيَّامِ أبدو مُجْهَدًا بِطَرِيقَةٍ كَبِيرَةٍ،

وأَقْتعلُ اَلشّجَار مَعَ اَلْجَمِيعِ، وَاقْتَعلتُ شِجَارًا مَعَ عَمَّار أَيْضًا . . .

لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ - رَغْم حِرْصِي - أن أخْبَارِي وَصلَت مريم وَعَلِمَت بِحَالَتِي، وَقَدْ أَتَتْ إِلَى مَكْتَبِي، وَوَقَفَتْ أَمَامِي بِهُدُوءٍ تَسْأَلُنِي:

- هَلْ هُنَاكَ شَيْءٌ ما يقلقكَ؟ إن اَلْجَمِيعَ يَتَكَلَّمُ عَنْ حَالَتِكَ اَلنَّفْسِيَّةِ اَلْيَوْم، وَشِجَاركَ مَعَ عَمَّار أَيْضًا كَانَ كَبِيرًا وَبِلَا سَبَبٍ . . . لَقَدْ أَهَنْتُهُ. . . أَنَا أَعْرِفُ أن بِدَاخِلِكَ خَيْرًا، وَلَكِن لم كُل هَذَا التوتر؟

حَاوَلَت اَلْكَلِمَاتُ أَنْ تَخْرُجَ من دَاخِلِي . . .

وَلَكِنَّ تَلَاشَتْ عَلَى لِسَانِي، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَقُولَ لَهَا أَيُّ شَيْءٍ، أَوْ أَنْ أخْبرهَا عَنْ مَشَاعِرِي.

ظَللتُ صَامِتًا وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى اَلْأَرْضِ ولا أجيب.

وَعِنْدَمَا أَيْقنْت مريم أَنِّي لَنْ أَتَحَدَّث، نَظرت إِلَيّ وَقَالَت:

- إن اَلسَّعَادَةَ لَا تُغَادِرُ قُلُوبَ من يُدْمنونَ اَلْعَطَاءُ، وَمن يَسْعَون إِلَى إِسْعَادِ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ أَرْدَفَت:

- وَأَنْتَ منهُمْ يا يوسف.

أخجلتنِي كلماتُها فأجبتها قائلاً:

- إنكِ من عَلَّمَني مَعْنَى اَلْعَطَاءِ، وَلَكِنّي مَا زلتُ أبْحَثُ عَنْ معنى اَلسَّعَادَةِ وكيفية الوصول إليها.

أَشَاحَت بِبَصَرِهَا بعيداً للحظةٍ، ثمّ اقتربت لتنظر إليّ مرةً أخرى وَتقول:

- لَا تَبْحَثُ بَعِيدًا عَنْ نَفْسِكَ يا يوسف. . . إن اَلسَّعَادَةَ بِدَاخِلِكَ . . . داخل نفسِك وفي ثنايا روحِك، وَلَنْ تَشْعر بِهَا إِلَّا إِذَا تَغَيَّرت تَغَيُّرًا حَقِيقِيًّا، فَإِن أردت اَلسَّعَادَة وَأردت ذَلِكَ اَلتَّغْيِير حقاً وبكلّ كيانِك، سَيُيَسِّرُ اَللَّهُ لَكَ كُل اَلسُّبُلِ اَلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى سَعَادَتِكَ.

كانت هَذِهِ اَلْكَلِمَات - رَغْم قُوَّتِهَا - بَلْسَمًا يُدَاوِي جراحَ قَلْبِي ويزرع بذورَ التفاؤلِ والأمل بداخله . . .

شعرتُ كَأنهَا بُشْرَى أَرْسَلَهَا اَللَّهُ لِي.

وَظَلِلْتُ أُكَرِّرُ هَذِهِ اَلْعِبَارة فِي نَفْسِي:

- إنْ أَردت اَلتَّغْيِير سَيُيَسِّرُ اَللَّهُ لَكَ كُل اَلسُّبُلِ اَلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى سَعَادَتِكَ.

كُنْتُ أعْلَمُ أن سَعَادَتِي هي مريم، وَكُنْتُ أَوَد كثيراً أن أكونَ مثلها، وأن أَحْمِلَ كُل هَذَا اَلْحُبّ لِكُلّ اَلْعَالَمِ . . .

أَن أَسْعَى بِصِدْقٍ لِمُسَاعَدَةِ اَلْمُحْتَاجِينَ . . .

أَن تَكونَ اَلطِيبة هِيَ عُنْوَان مُعَامَلَاتِي . . .

أَن أجْبر خَوَاطِرَ من حَولِي، لَا أَنْ أكْسرها . . .

أَن يَكُونَ اَلْعَطَاءُ وَالْبَذْلُ وَمُشَارَكَةُ اَلسَّعَادَةِ هِيَ أَدَوَاتِي . . .

مُنْذُ تِلْكَ اَللَّحْظَةِ وبدافع من تلكَ الكلمَات التي قالتهَا مريم أَرْدت اَلتَّغْيِير . . .

أَرَدْتُ اَلتَّغْيِير بِشِدَّةٍ لِأَكُونَ لَائِقًا بِها، وَمُسْتَحِقًّا لِأَنْ أَكُونَ رَفِيق دَرْبِهَا.

عَلمتُ بَعْدَهَا بِأَيَّامٍ أن مريم رَفَضَت اَلِارْتِبَاطَ بِالشَّابِّ اَلَّذِي تَقَدَّمَ لَهَا، حَيْثُ أن حَيَاتَهَا تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ حَيَاتِهِ . . .

فَهُوَ من نَوْعِ اَلْأَثْرِيَاءِ اَلَّذِي يَضَعُ سِعْرًا لِكُلِّ شَيْءٍ حَتَّى اَلْحُب وَحَتَّى اَلزَّوَاجِ!

وَقَدْ سَانَدَهَا وَالِدُهَا فِي هَذَا اَلْقَرَارِ، حَيْثُ كَانَ لَا يُحِبُّ أَيْضًا تِلْكَ اَلطَّرِيقَة فِي اَلْحَيَاةِ، كَمَا أنهُ خَشِيَ من اِرْتِبَاطِ مريم بِهَذَا اَلشَّابِّ فهو يعلمُ أنّهُ رغم ثرائِه لن يجعلها سعيدة.

كَانَ هَذَا فِي اِعْتِقَادِي خَيْرًا كَبِيرًا لها، وَهوَ أَيْضًا كَانَ خَيْرًا لِي، فقد أَعْطَانِي مُهْلَة جَدِيدَة، وَرُبَّمَا تَكُونُ أَخِيرَة لِلتَّغْيِيرِ اَلَّذِي كُنْتُ أُنْشُدهُ.

كُنْتُ أَعْلَمُ أنهَا فَقَطْ مَسْأَلَة وَقْتٍ وَسَيَتقدمُ لها شَابٌ آخَر ويَطْرُقُ بَابَها، وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ أفَكِّرَ بِسُرْعَةٍ . . .

يجب أَنْ أطرق بَاب بَيْتِهَا وَأطْلبهَا للزواج من أَبِيهَا، إنها اَلطَّرِيقَة اَلْوَحِيدَةُ اَلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ بِهَا هَذَا اَلِارْتِبَاطِ.

ولكن لا يمكن أنْ أفعل هذا فَوْرًا. . .

لِأنني يَجِبُ أَنْ أَتَغَيَّرَ أَوَّلاً . . .

ويَجِب أَنْ يَتِمَّ هَذَا اَلتَّغْيِيرِ سَرِيعًا قَبْل أَنْ أفْقدهَا وَإِلَى اَلْأَبَدِ . . .

وَلَكِنْ هَلْ يُمْكِنُ بِالْفِعْلِ أَنْ أَتَغَيَّر سَرِيعًا كمَا أريدُ وأتمنّى؟

ولم أكن أدركُ وقتها،
كم أنّ الإجابةَ كانت قريبةً.

-١٠-
قبول الدعوة

أفَقْتُ من ذِكْرَيَاتِي،
وَاعتدلتُ فِي جَلْسَتي عَلَى اَلْأَرِيكَةِ، وَتَذَكَّرتُ ذَلِكَ اَلْعَجُوز اَلَّذِي اِصْطدمتُ بِهِ وَتِلْكَ اَلْوَرَقَة ذَات اَللَّوْنِ اَلْأَصْفَرِ اَلْمُبْهِجِ اَلَّتِي وَضَعَهَا فِي يَدِي.
أخْرجتُ اَلْوَرَقَة وَوَضعتُهَا أَمَامِي، وَبَدأتُ أقْرأُ مَا خُطَّ عَلَيْهَا.
لَقَدْ كَانَتْ دَعْوَةٌ لِتَغْيِيرِ اَلْحَيَاةِ!!!
هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ هَذَا بِالْفِعْلِ؟
هَلْ اِسْتَجَابَ اَللَّهُ لِدَعَوَاتِي سَرِيعًا وَأرْسَلَ لِي من يُسَاعِدُنِي فِي تَغْيِيرِ حَيَاتِي؟
هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا صَحِيحًا؟
قَرَأتُ اَلدَّعْوَة جَيِّدًا، إنهَا دَعْوَةٌ لِلْإِقَامَةِ فِي مَدِينَة هَابِينِيسِيا (مَدِينَة اَلسَّعَادَة)، وَخُطّ بها أنهَا سَوْفَ تُغَيّرُ حَيَاتِي، وَأن كُل مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مني هُوَ اَلْمُوَافَقَةُ عَلَى تلك اَلدَّعْوَةِ، وَالتَّوْقِيعِ عَلَيْهَا لِيَقوم منظّمُو الرحلةِ بِإِرْسَالِ مَبْعُوثِيهِم لِيصَحَبُونِي إِلَى مَدِينَةِ اَلسَّعَادَةِ.
كَانَتْ دَعْوَةٌ غَرِيبَةٌ، وَتَحْتَاجُ لِلْكَثِيرِ من اَلتَّفْكِيرِ قَبْلَ قَبُولِهَا أَوْ اَلتَّعَامُلِ مَعَهَا.

فَإِنّي رَغْم لَهْفَتِي عَلَى إِيجَادِ طَرِيقَةٍ لِتَغْيِيرِ حَيَاتِي إِلَّا أنني يَجِبُ أَنْ أدَقِّقَ فِي هَذِهِ اَلدَّعْوَةِ أَوَّلاً . . .

قُمْتُ لِأَبْحث عَلَى شَبَكَةِ اَلْإِنْتَرْنِت عَنْ مَكَانِ هَذِهِ اَلْمَدِينَةِ . . .

فَلَمْ أَجِد شَيْئًا عَنْ مَوْقِعِهَا.

بَلْ إنني بَحَثْتُ عَنْ أَيّ مَعْلُومَاتٍ تَخُصُّهَا، أَوْ تَخُصُّ اَلدَّعَوَات إِلَى اَلْمَدِينَةِ، أَوْ تَخُصُّ من زَارَهَا، فَأَيْضًا لَمْ أسْتَطِع اَلْوُصُول إِلَى أَيّ مَعْلُومَةٍ . . .

زَادَ شَكِّي كَثِيرًا . . .

فَمَا طَبِيعَةُ هَذِهِ اَلْمَدِينَةِ اَلَّتِي لَا يَعْلَمُ أحَدٌ عَنْهَا شَيْئًا . . .

أُم أنهَا دُعَابَةٌ سَمِجَةٌ . . .

أَوْ دَعَايَة سَخِيفَة لِإِحْدَى اَلشَّرِكَاتِ . . .

أَو ربما إنهَا اَلسَّبِيل اَلَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُرْشِدَنِيَ إِلَى كَيْفِيَّةِ اَلتَّغْيِيرِ اَلَّذِي أَنْشَدَهُ . . .

نَظرتُ إِلَى اَلْوَرَقَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَا أدْرِي لِمَاذَا جَاءَ هَذَا فِي خَاطِرِي وَقَلَّتْ سَاخِرًا:

- فَلأوْقَع هَذِهِ اَلْوَرَقَة وَأوَافِقُ عَلَى اَلرِّحْلَةِ، ولَكِنّي من جِهَةٍ أُخْرَى لَنْ أعطى هَذِهِ اَلْوَرَقَةِ لِأَحَدٍ.

وَضَحِكَتْ وَأَكْملت:

- إنّ اَلرِّحْلَة مَجَّانِيَّة كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ بها، لذا فَلَنْ أخْسَرَ شَيْئًا إذا وقّعت عليها، وَلَنْ يَعْلَم أَحَدٌ أَبَدًا أنني وَقّعت هَذِهِ اَلْوَرَقَة، فَمن أَيْنَ

يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمُوا هَذَا؟ أمّا إنْ كانَ هناكَ ما هو مقدّرٌ لي أن يحدث فسوفَ يكون.

قُمْتُ بِالتَّوْقِيعِ عَلَى اَلْوَرَقَةِ موثقاً موافقتي على الرحلةِ وَوَضعتهَا عَلَى منضَدَةٍ أَمَامِي.

ثم ذَهَبت إِلَى غُرْفَتَي لِلنَّوْمِ.

وَلَم أكُنْ أعْلَمُ حِينهَا أن هَذِهِ اَلْمُوَافَقَة هِيَ اَلَّتِي سَتُغَيِّرُ مَجْرَى وَأحْدَاث حَيَاتِي.

-١١-

رحلة إلى مدينة السعادة

بَعْد مُنْتَصَفِ هَذِهِ اَللَّيْلَة . . .

سَمعتُ صوتَ ضَوْضَاءٍ شَدِيدَةٍ أيْقَظَتْنِي من نومِي.

وَإِذَا بِضَوْءٍ شَدِيدٍ يَمُرُّ عَبْرَ نَافِذَتِي وَيَغْمُرُ سَرِيرِي ووجهي . . . فَاسْتيقظت فَزعاً...

كَانَ جَسَدِي يَرْتَعِشُ خَوْفًا، فَلِمَ أُكن أَعْلَمُ مَا يَجْرِي حَوْلِي . . . سَمعتُ من يطرقُ عَلَى بَابِ مَنْزِلِي.

كُنْتُ من خَوْفِي لَا أسْتَطِيعُ أَنْ أتَحَرَّكَ من سَرِيرِي، وَلَكِنَّ فُضُولِي جَذَبَنِي لِأَمْشِيَ مُتَثَاقِلاً نَحْوَ اَلْبَابِ لِأفْتحه لعلّي أعْلَمُ مَا يَجْرِي حَوْلِي.

فَتحتُ اَلْبَابَ فَإِذَا بِشَابَّيْنِ مُبْتَسِمِين يَقِفَان أمَام اَلْبَابِ قَالَ أَحَدُهُمَا:

- نَحْنُ من مَدِينَةِ اَلسَّعَادَةِ (هَابِينِيسِيا).

تَذَكَّرتُ تِلْكَ اَلدَّعْوَة اَلْغَرِيبَة اَلَّتِي وَقَّعتُ عَلَيْهَا قَبْلَ نَوْمِي فقلت متعجبًا:

- نعم أنا أتذكّرُ هذا الاسمَ وتلك الدعوة التي قَبلتُها قبلَ نومِي، وَلَكِنْ هَلْ هَذَا وَقْتٌ مُنَاسِبٌ للذهابِ؟!!

- نَحْنُ أَتَيْنَا لِاصْطِحَابِكَ بِمُجَرَّدِ مُوَافَقَتِكَ عَلَى اَلدَّعْوَةِ . . . فَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ وَالْأَفْضَل أَنْ نَذْهَبَ لَيْلاً . . .

- وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتُمَا أنني وَافقت عَلَى اَلدَّعْوَةِ، فَهِيَ مَا زَالَتْ مَعِي!

- إنهَا من مُبْتَكَرَاتِ مَدِينَة هَابِينِيسِيا، هَذِهِ اَلْوَرَقَة تُرْسِلُ إِشَارَةً لَاسِلْكِيَّةً لَنَا بِمُجَرَّدِ مُوَافَقَتِكَ، وَلِهَذَا فَنَحْنُ نَأْتِي فوراً لنبدأ الرحلةَ.

قَلتُ مندهشًا:

- إن هَذَا تَطَوُّرٌ كبيرٌ وعجيب!!!

اِبْتَسَمَ أَحَد اَلشَّابَّيْنِ، وَقَالَ مفتخراً:

- إن هَابِينِيسِيا مَدِينَة مُتَطَوِّرَة لِلْغَايَةِ . . . إنهَا بالفعلِ مَدِينَةُ اَلسَّعَادَةِ . . . سَوْفَ تَلْمِسُ بِيَدِكَ عِنْدَمَا تَزُورُهَا مَدَى اِخْتِلَافِهَا وَتَطَوُّرِهَا . . . سَوْفَ تَرَى فِيهَا أَشْيَاء لَا يُمْكِنُ أَنْ تَرَاهَا فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ.

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً:

- وَلَكِنْ هَلْ أَنْتَ جَاهِزٌ لِهَذِهِ اَلْمُغَامَرَةِ اَلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُغَيِّرَ حَيَاتَكَ؟

أَجَبْتُهُ قَائِلاً:

- لَقَدْ اِزْدَادَ فُضُولِي لِزِيَارَةِ هَذِهِ اَلْمَدِينَةِ، وَلَكِنِّي لَمْ أحضّر حَقِيبَتَي، فَهَلْ حَقًّا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَذْهَبَ فِي رِحْلَةٍ دُونَ أَي تَحْضِيرِ لَهَا؟

اِبْتَسَمَ اَلشَّابُّ مَرَّةً أُخْرَى وَكَأنهُ يَعْلَمُ أَنِّي سَأَقُولُ هَذَا وَقَالَ بثقةٍ:

- اِطْمَئِن . . . حَقِيبَتُكَ جَاهِزَة وَمَعَنَا أيضا فِي اَلطَّائِرَةِ. . . إن بها ثِيَابُكَ اَلَّتِي تُحِبُّ أَنْ تَرْتَدِيهَا، وَبِالْأَلْوَانِ اَلَّتِي تُفَضِّلُهَا، وَمن اَلْمَتَاجِرِ اَلَّتِي تعتادُ اَلشِّرَاءَ منهَا، إن قَهْوَتكَ اَلْمُفَضَّلَة وَمَعْجُون أَسْنَانِكَ اَلْمُفَضَّل معنا . . . كُل مَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَخَيَّلَهُ قد أحضرنَاه منْ أجلِ راحتِكَ.

بَدأتُ أَشْعُرُ بِالْقَلَقِ، وَسَأَلتُ اَلشَّابَّ:

- وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتُمْ كُلُّ هَذَا؟

أجابني بهدوءٍ وثقةٍ:

- سَوْفَ تَعْرِفُ كُلَّ اَلتَّفَاصِيلِ عِنْدَمَا تَصِلُ مَعَنَا إِلَى اَلْمَدِينَةِ، فنَحْنُ يقتصرُ دَوْرنَا على اِصْطِحَابُكَ بِأَمَانٍ إِلَى اَلْمَدِينَةِ، وَهُنَاكَ سَوْفَ تَرَى اَلْكَثِيرَ مما قد لا تتخيله.
- إِذاً هل تسْمَحُوا لِي بِتَغْيِيرِ مَلَابِسِ اَلنَّوْمِ اَلَّتِي أَرْتَدِيهَا حتّى أذْهب معكم؟
- لَا بَأْس، سَنَكُونُ بِانْتِظَارِكَ.

-١٢-

الطريق الى المدينة

خَرجتُ من مَنْزِلِي إِلَى اَلشَّارِعِ لِأجِد طَائِرَةً دَائِرِيَّة اَلشَّكْلِ تُشْبِهُ إِلَى حَدِّ مَا نَمَاذِجَ اَلْأَطْبَاقِ اَلطَّائِرَةِ اَلَّتِي نَرَاهَا فِي أَفْلَامِ اَلْخَيَالِ اَلْعِلْمِيِّ.

رَافَقَنِي اَلشَّابَّان إِلَى دَاخِلِ اَلطَّائِرَةِ اَلطَّوَّافَةِ كمَا يسمّونَها. . .

كَانَتْ ذَات مَقَاعِد فَخْمَة وَمُرِيحَة،

كَمَا كَانَتْ حَوْلَنَا نَوَافِذ كَبِيرَة وَكَثِيرَة. . .

اِلْتَفَتُّ إِلَى اَلْأَمَامِ لِأقَدِّم اَلتَّحِيَّةَ لِقَائِدِ اَلطَّائِرَةِ فَلَمْ أجِدْ أحَدًا فَقَد كَانَتْ ذَاتِيَّة اَلْقِيَادَةِ.

ثَوَانٍ، وَقَالَ أَحَدُ اَلشَّابَّيْنِ:

- هَيَّا فَلِنَذْهَب إِلَى هَابِينِيسِيا.

فَإِذَا بِأَبْوَابِ اَلطَّائِرَةِ تُغْلِقُ وَتَتَحَرَّكُ اَلطَّائِرَةُ عَمُودِيًّا وَتَرْتَفِعُ إِلَى اَلْأَعْلَى!!

كَانَ هُنَاكَ نَافِذَة إِلَى جِوَارِي ظَلِلْتُ أُحَاوِلُ اِخْتِلَاس اَلنَّظر منهَا لعلّي أَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ تَتَّجِهُ اَلطَّائِرَةُ . . .

وَلَكِنَّ اَلظَّلَام كَانَ دَامِسًا يَبْتَلِعُ كُلُّ اَلْمَعَالِمِ.

أَرَانِي أَحَد اَلشَّابَّيْنِ اَلْحَقِيبَةَ اَلَّتِي تَحْتَوِي عَلَى مَلَابِسِي وَمُسْتَلْزَمَاتِ اَلرِّحْلَةِ، وَالْحَقِيقَةُ كَانَتْ أنّ الحقيبةَ تحتوي على أشياءٍ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ أَتَخَيَّلَهُ أَوْ أَحضرهُ بِنَفْسِي. أَعْطَانِي اَلشَّابُّ اَلْآخَرُ مَشْرُوبًا . . .

كَانَ شَدِيدُ اَلْحَلَاوَةِ وَرَائِع اَلطَّعْمِ . . .
بعدهَا لَمْ أَشْعر بِأَيِّ شَيْءٍ.

-١٣-

هابينيسيا

اِسْتَيْقظت وَأَحَدَ اَلشَّابَّيْنِ يربّتُ عَلَى كَتِفِي وَهُوَ يَقُولُ:

- أُسْتَاذُ يوسف، اِسْتَيْقظ، لَقَدْ وَصَلْنَا تَقْرِيبًا.

كُنْتُ أَشْعُرُ بِالدُّوَارِ، وَمَا زِلْتُ لَا أَدْرِي إِنْ كُنْتُ أَحْلُمُ أَمْ أن مَا يَجْرِي حَوْلِي هُوَ حَدَثٌ حَقِيقِيٌّ.

نظرتُ حولِي مندهشاً لبرهةٍ، ثمّ قلتُ:

- أَيْنَ نَحْنُ اَلْآنَ؟

رَدّ الشابُ بِابْتِسَامَةٍ:

- لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى هَابِينِيسِيا، لقد وصلنا إلى مدينة السعادة.

نظرتُ من إِحْدَى اَلنَّوَافِذِ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُمَيِّز شَيْئًا . . .
فَأَمَامِي أفُق مُتَّسَع لَا نِهَايَةَ لَهُ.

مَا لَاحَظْتُه هُوَ سُطُوع اَلشَّمْسِ وَنُورِهَا اَلَّذِي تَسَلَّلَ إِلَى دَاخِلِ اَلطَّائِرَةِ اَلطَّوَّافَةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أن اَلْمَسَافَةَ كَانَتْ بَعِيدَة، فَقَدْ اِسْتَغْرَقَنَا عِدَّةَ سَاعَاتٍ تقريباً فِي هَذِهِ اَلرِّحْلَةِ . . .

وَلَمْ تكد تَمُر دَقَائِقُ،

حَتَّى شعرتُ بِهُبُوطِ اَلطَّائِرَةِ اَلطَّوَّافَةِ اَلْعَمُودِيّ إِلَى اَلْأَسْفَلِ . . . وَلَمْ تَكَدْ تَمُرُّ دَقَائِق أخْرَى، حَتَّى شعرتُ بِمُلَامَسَةٍ خَفِيفَةٍ لِلطَّائِرَةِ مَعَ اَلْأَرْضِ.

فَعرفتُ أننا هَبَطْنَا اَلْآنُ فِي هَابِينِيسِيا.

سَاعدني اَلشَّابَّان عَلَى اَلنُّهُوضِ . . .

ثُمَّ فُتحَ بَابُ اَلطَّائِرَةِ اَلطَّوَّافَةِ بِطَرِيقَةٍ آلِيَّةٍ؛ لِأَنزِل أَخِيرًا من الطائرةِ وَألامس أَرْضَ مَدِينَةِ اَلسَّعَادَةِ . . .

نَظرتُ أَمَامِي أتأمّلُ مَا أرَى وأتمعّنُ، وَأنَا مَذْهُولٌ من هَذَا اَلْمَشْهَدِ وهذا الجمال. . .

لَقَدْ رَأَيْتُ أَمَامِي أسْوَارَ وَأبْوَابَ مَدِينَةِ هَابِينِيسِيا . . .

لَقَدْ كَانَ مَشْهَدًا مَهِيبًا . . .

كَانَ لَهَا أسْوَارٌ شَاهِقَةٌ صَفْرَاءُ اَللَّوْنِ . . .

إنها تُشْعِرُكَ بِالْبَهْجَةِ وَالْفَخَامَةِ . . .

كانت الأسوار مَنْقُوشَة بِتَصَامِيم بَارِزَةٍ، ذَهَبِيَّةِ اَللَّوْنِ، شَدِيدَة اَلدِّقَّةِ وَالْجَمَالِ، مُمْتَدَّة حَتَّى أنهُ لَا يُمْكِنُكَ أَنْ تَرَى نِهَايَةً لِهَذِهِ اَلْأَسْوَارِ.

كَمَا كَانَ لَهَا بَابٌ شَدِيد اَلْجَمَالِ، يَتَلَألأ تَحْت أَشِعَّةِ اَلشَّمْسِ كَأنهُ مَصْنُوعٌ من ذَهَبٍ.

تَأَمَّلْتُ جَمَالَ وَرَوْعَةَ وَفَخَامَةَ اَلْمَشْهَدِ لِدَقَائِق . . .

وَلَقَد اِحْتَرَمَ اَلشَّابَّان دَقَائِقَ تَأَمُّلِي مَدْخَل اَلْمَدِينَةِ . . . فَيَبْدُو أنهُمَا مُعْتَادَانِ عَلَى هَذَا . . .

بعدهَا، اِقْتَرَبَ أَحَدُهُمَا وَقَالَ مرّحبًا:

- أَهْلاً بِكَ فِي هَابِينِيسِيا، أَهْلاً بِكَ فِي مَدِينَةِ اَلسَّعَادَةِ.

-١٤-

داخل مدينة السعادة

مَا أَنْ مررتُ من بَابِ اَلْمَدِينَةِ اَلْفَخْمِ؛ حَتَّى شَعرتُ بِثقلِ وبطءِ خُطُوَاتِي، فسَألتُ أَحَدَ اَلشَّابَّيْنِ بِانْزِعَاجٍ:

- هناك شَيْءٌ مَا عجيبٌ يَحْدُثُ لِي، فَخُطْوَاتي أَصْبَحَت بَطِيئَة وَثَقِيلَة.

رَدَّ الشابُ بِتَفَهُّمٍ:

- هَذَا طَبِيعِيٌّ، سَوْفَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ في أقربِ وقتٍ.

أكملنَا طريقَنا،

ومَا أن أصْبَحْنَا دَاخِل اَلْمَدِينَةِ حَتَّى أعجبتُ بِجَمَالِهَا، وَسألتُ نَفْسِي: مَا كُلُّ هَذِهِ اَلرَّوْعَة؟!

فَقَدْ كَانَ يَكْسُوهَا اَللَّوْنُ اَلْأَخْضَرُ المطعم بألوانٍ مختلفةٍ فِي كُلِّ أَرْجَائِهَا، ففيها أَشْجَارٌ مُثْمِرَةٌ، وَحَدَائِق مزهرةٌ متعددةُ الألوانِ، وكما تميّزها رَائِحَة اَلْوُرُودِ اَلَّتِي تَحتضنك بِمُجَرَّدِ دُخُولِكَ وَسَيْرِكَ فِي طُرُقِهَا . . .

كما كانت مَنَازِل اَلْمَدِينَةِ كُلِّهَا ذَات أَلْوَانٍ مُبْهِجَةٍ، ويُحِيط بكُلّ مَنْزِلٍ حَدِيقَة صَغِيرَة . . .

كانت كُلُّ اَلْمَنَازِلِ من طابقٍ وَاحِدٍ، والتي تَشْعُرك بِالْبَهْجَةِ من تَنَاسُقِ أَلْوَانِهَا مَعَ اَلطَّبِيعَةِ . . .

وخلالَ سيري رَأَيْتُ اَلْكَثِير من اَلنَّاسِ يَمْشُون أَمَامِي فِي طُرُقَاتِ اَلْمَدِينَةِ من مُخْتَلِفِ اَلْأَعْمَارِ: منهُمْ من يَمْشِي بِبُطْءٍ مِثْلِي، وَمنهُمْ من يَمْشِي بِطَرِيقَةٍ عَادِيَّةٍ، وَمنهُمْ من يَمْشِي سَرِيعًا، وَمنهُمْ من يَكَاد لَا يَلْمِسُ اَلْأَرْضَ من سُرْعَتِهِ.

تعجَّبتُ كَثِيرًا من المشهد، وَمعَ هذَا لَمْ أسْأَلْ عَنْهُ؛ فَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أنني سَوْفَ أكْتشف هَذِه اَلْأَسْرَار وَالْمَعْلُومَات لَاحِقًا. كانت هناك مَكْتَبَات مَجَّانِيَّة صَغِيرَة مُنْتَشِرَة فِي كُلِّ مَكَانٍ تُطل عَلَى اَلْحَدَائِقِ، وَهُنَاكَ من يَجْلِسُونَ وَيَقْرَؤُونَ.

فَسألتُ أَحَدَ اَلشَّابَّيْنِ:

- لِمَاذَا هُنَاكَ مَكْتَبَات فِي كُلِّ اَلطُّرُقِ؟

رَدّ الشابُ بابتسامةٍ واسعةٍ:

- وَهَلْ هُنَاكَ سَعَادَة بِلَا قِرَاءَة؟

كَانَ اَلشَّابَّان يَمْشِيَانِ بِبُطْءٍ لِكَي يُسَايِرَا خُطُوَاتِي . . .

وأخيراً وَصَلْنَا إِلَى أَحَدِ اَلْمَبَانِي، وَقَدْ وُضعت عَلَى بَابِهِ لَافِتَة تُشِيرُ إِلَى أن هَذَا اَلْمَبْنَى هُوَ مَبْنَى "مَسْئُول اَلِاسْتِقْبَال".

طَرَق أَحد اَلشَّابَّيْنِ اَلْبَاب ثُمَّ نَظَرَ إِلَى كَامِيرَا مُثَبَّتَة فَوْقَه،
فَفُتحَ اَلْبَاب.
اِقْتَرَبَ اَلشَّابُّ اَلثَّانِي وَرَبّت عَلَى كَتِفِي، وَقَالَ:
- اَلْآن اِنْتَهَتْ مُهِمَّتُنَا، سَوْفَ تَدْخُلُ لِتُقَابِل مَسْئُولَ اَلِاسْتِقْبَالِ وَهُوَ سَيَشْرَحُ لَكَ كُل شَيْءٍ، نَتَمَنَّى لَكَ اَلتَّوْفِيق.
نَظرتُ لَهُ مُبْتَسِمًا،
وَشَكَرَتْهُمَا.
وَدَلفتُ بَطِيئًا إِلَى اَلدَّاخِلِ.
ثُمَّ أُغْلِق اَلْبَاب وَرَائِي.

-١٥-

مسئول الاستقبال

دخلتُ اَلْمَبْنَى وأنا لا أعلمُ ماذا سيقابلُني، فَإِذَا بِي دَاخِل غُرْفَةِ اِسْتِقْبَالٍ وَاسِعَةٍ.
كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا يُوحِي بِالْفَخَامَةِ.
فِيهَا عَدَدٌ من اَلشَّاشَاتِ اَلْمُعَلَّقَةِ عَلَى اَلْحَائِطِ تُظْهِرُ مَنَاطِق اَلْمَدِينَةِ اَلْمُخْتَلِفَةِ، كما كان هناك عَدَدٌ من اَلْمُؤَشِّرَاتِ وَالْأَرْقَامِ اَلَّتِي تَتَغَيَّرُ بِاسْتِمْرَارٍ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ.

كُنْتُ مُجْهَدًا من اَلسَّفَرِ، فَجلستُ عَلَى أَقْرَبِ مَقْعَدٍ.

وَبِمُجَرَّدِ أَن جَلست، حَتَّى اِقْتَرَبَ مني إِنْسَانٌ آلي مُتَوَسِّط اَلْحَجْمِ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ اَلْمَعْدِنِي:

- أَنَا مُسَاعِدُكَ اَلشَّخْصِي.

فَابْتسمتُ، وَلَمْ أجِبْ . . .

فَذَهَبَ من أَمَامِي لِدَقِيقَةٍ، ثُمَّ عَادَ حَامِلاً كُوبًا وَقَال:

- تفَضّل، لقد أعددتُ لكَ قَهْوَتَكَ.

أَخذتُ كُوبَ اَلْقَهْوَةِ اَلَّذِي أعَدَّهُ، لَأَجِد أن اَلْقَهْوَةَ هِيَ من اَلنَّوْعِ اَلَّذِي أُفَضِّلُهُ، وَمَصْنُوعَة بِنَفْسِ اَلطَّرِيقَةِ اَلَّتِي اِعْتدت عَلَيْهَا. تَذَكَّرتُ عِنْدَهَا عِنْدَمَا أَخْبَرَنِي أَحَدُ اَلشَّابَّيْنِ عَلَى أنهُمْ يَعْرِفُونَ عَنِّي اَلْكَثِيرَ.

هَزَزْتُ رَأْسِي مُتَعَجِّبًا، ثُمَّ أمسكتُ بكُوبِ اَلْقَهْوَةِ اَلَّذِي كُنْتُ فِي حَاجَةٍ كَبِيرَةٍ إِلَيْهِ.

لَقَدْ بَدَأتُ أحبُ هَذَا اَلْمَكَانِ...

مَا أَنْ أَنْهَيْتُ قَهْوَتِي، حَتَّى فُتح أَحَد اَلْأَبْوَابِ اَلدَّاخِلِيَّةِ، وَظَهَرَ أَمَامِي رَجُلٌ فِي اَلْأَرْبَعِينِيَّاتِ من اَلْعُمْرِ، وَسِيم اَلْمَلَامِحِ، تَنْتَشِر بَعْض خُصُلَاتِ اَلشَّعْرِ اَلْأَبْيَضِ بَيْنَ ثَنَايَا شِعْرِهِ الأسود، مِمَّا يُعْطِيه وَقَارًا وَهَيْبَة.

اِقْتَرَبَ اَلرَّجُلُ مُرَحِّبًا وَمَادّا يَدهُ، وَهو يَقُولُ:

- أهلاً أُسْتَاذ يوسف، أحبُّ أن أعرّفكَ بنفسِي، أَنَا مَسْئُولُ اَلِاسْتِقْبَالِ بِالْمَدِينَةِ، ومهمّتي هي اِمدادكَ بالمعلوماتِ والأدواتِ اللازمة لإقامتكَ بمدينةِ السعادةِ.

مَددتُ يَدِي إِلَيْهِ، وَقُلْتُ:

- أَهْلاً بِكَ، يسعدني لقاؤك، وأَوَدُّ فِعْلاً أَنْ أَعْرِفَ منكَ كُلَّ شَيْءٍ.

اِبْتَسَمَ وَجَلَسَ فِي اَلْمَقْعَدِ المواجه لمَقْعَدي مُبَاشِرَةً، وَقَالَ:

- نعم، إنهَا مُهِمَّتِي أَن أشرح لَكَ، وَأجِيبُ عَنْ أَسْئِلَتِكَ.

ثُمَّ أرْدَفَ بِجِدِّيَّةٍ:

- إن هَابِينِيسِيا كَانَت حُلْمًا لِمَجْمُوعَةٍ من اَلْعُلَمَاءِ من دُوَلٍ كَثِيرَةٍ، لَقَدْ كَانَتْ رِسَالَتهُم اَلَّتِي اِجْتَمَعُوا عَلَيْهَا هِيَ نَشْرُ اَلسَّعَادَةِ فِي اَلْعَالَمِ، وَلَقَدْ سَانَدَهُمْ كَثِيرٌ من اَلنَّاسِ حَتَّى حَصَلَت هَابِينِيسِيا عَلَى أَفْضَلِ اَلتِّقْنِيَّاتِ... إن المدينةَ تحتوِي على كلِّ مَا سَيَجْعَلُكَ تَفهمُ مَعنَى اَلسَّعَادَةِ، وَالأدوَات التي تصْنَعُ اَلتَّغْيِير اَلَّذِي يَجْعَلُكَ تَعِيش سَعِيدًا، وَتَجْعَل من حَولَكَ سُعَدَاء أيضاً.

ثُمَّ عَادَ بِظَهْرِهِ للوراء، وَأكمل:

- وَلَكِنَّنَا لِلْأَسَفِ لَمْ نَسْتَطِعْ اَلْوُصُول إِلَى نِسْبَةِ نَجَاحٍ كَامِلَةٍ، فَلَيْسَ كُل اَلْأَشْخَاصِ اَلَّذِينَ زَارُوا اَلْمَدِينَة قَد نَجَحُوا فِي الحصولِ على حَيَاةٍ سَعِيدَةٍ؛ لِأن هُنَاكَ عَوَامِل أخْرَى تَعْتَمِدُ عَلَى اَلشَّخصِ وَإِرَادَتِهِ

وَقُدْرَتِهِ، لَقَدْ وَصَلَت نِسْبَة نَجَاحِنَا إِلَى (٨٠٪)، وَنَتَمَنَّى أَنْ تَزِيدَ فِي اَلْأَعْوَامِ اَلْقَادِمَةِ.

ثُمَّ أخرج صُنْدُوقًا أَصْفَر اَللَّوْنِ من أَحَدِ اَلْأَدْرَاجِ بِجِوَارِهِ، وَوَضَعَه عَلَى منضَدَةٍ صَغِيرَةٍ أَمَامِي، وَقَال:

- اِحْتفظ بِهَذَا اَلصُّنْدُوق، هَذِهِ أَدَوَاتُكَ اَلْخَاصَّةُ اَلَّتِي سَتَحْتَاجُهَا هُنَا، وَاَلَّتِي سَتُسَلِّمُهَا لِي قَبْلَ عَوْدَتِكَ سَعِيدًا إِلَى مَوْطِنِكَ.

كُنْتُ أَسْتَمِعُ مُنْدَهِشًا، وَعَقْلِي يُحَاوِلُ أَنْ يَفْهَم وَيُحَلِّل هَذِهِ اَلْمَعْلُومَاتِ.

لَكِن مَا أَنْ أخْرجَ المسئولُ هَذَا اَلصُّنْدُوق أَمَامِي، حَتَّى فَتَحته لأنْظر إِلَى مَا فِيهِ، فَإِذَا بِي أجِدُ أن مُحْتَوَيَاتِهِ هي: سَاعَة رَقْمِيَّة، وَمَجْمُوعَة من اَلْأَوْرَاقِ، وَقَلَم، وَجِهَاز الكتروني صَغِير. فَاعْتَدلت، وَسَأَلْتُهُ قَائِلاً:

- من فَضْلِكَ، هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَشْرَحَ لِي مَا فَائِدَة وَاسْتِخْدَامَات هَذِهِ اَلْأَدَوَاتِ اَلْمَوْجُودَةِ دَاخِل اَلصُّنْدُوقِ؟

رَدّ وهو يشيرُ إِلَى اَلْأَدَوَاتِ:

- إن هَذِهِ اَلْأَوْرَاق اَلَّتِي تَرَاهَا هِيَ عُمْلَة مَدِينَةِ اَلسَّعَادَةِ، سَوْفَ تَحْصُلُ عَلَى مَبْلَغٍ مالِيٍّ مُحَدَّدٍ يَوْمِيًّا يَكْفِي اِحْتِيَاجَاتِكَ، أَمَّا هَذَا اَلْقَلَم فَهُوَ وسيلةٌ حديثةٌ للتَّواصلِ عَبْرَ اَلرَّسَائِلِ مع الجميعِ، يَكْفِي أَنْ تَكْتُبَ عَلَى اَلْوَرَقةِ اِسْم اَلشَّخْصِ وَالرِّسَالَةِ وَهِيَ سَتَصِلُ إِلَيْهِ، أَمَّا هَذَا اَلْجِهَاز اَلصَّغِير فَهُوَ مِفْتَاحُ غُرْفَتِكَ، وَهُوَ مَا يَتَحَكَّمُ فِي أَجْهِزَتِهَا وَفِي مُسَاعِدِكَ اَلشَّخْصِي.

ثُمَّ مَدّ يَده، وَأخذ اَلسَّاعَة اَلرَّقْمِيَّة من اَلصُّنْدُوقِ، وَأشَارَ إِلَيْهَا وَقَالَ:

- أَمَّا هَذِهِ فَهِيَ أَهَمُّ اَلْأَدَوَاتِ، إنهَا تَحْتَوِي مُؤَشِّرَات اَلسَّعَادَةِ اَلْخَاصَّةِ بِكَ بِصُورَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، هَذِهِ اَلْمُؤَشِّرَات تَشْمَلُ مُؤَشِّر اَلْعَطَاءِ، وَمُؤَشِّر اَلْمُشَارَكَةِ، وَمُؤَشِّر الِامْتِنَانِ، وَمُؤَشِّر اَلتَّفْكِيرِ اَلْإِيجَابِي وغيرها.... إنمَا أَهَمّ اَلْمُؤَشِّرَاتِ هُوَ مُؤَشِّرُ اَلرِّضَا، وَهُوَ بمثابةِ مِفْتَاحُ اَلسَّعَادَةِ، وَهُوَ ايضاً تَأْشِيرَتكَ لِلْعَوْدَةِ إِلَى مَوْطِنِكَ؛ فَعِنْدَمَا يَصِلُ هَذَا اَلْمُؤَشِّرِ إِلَى (٩٠٪) سَيَتَحَوَّلُ لَوْنُ سَاعَتِكَ إِلَى اَللَّوْنِ اَلْأَخْضَرِ وتكون قادرًا على مغادرةِ المدينةِ.

ثُمَّ اِعْتَدَلَ وَنَظَرَ لِي بِجِدِّيَّةٍ شديدةٍ وَقَالَ:

- وَاحْرِصْ أَيْضًا أَنْ تَظَلَّ قِيمَة مُؤَشِّرِ اَلرِّضَا أَكْبَر من اَلصِّفْرِ، لِأنهُ إِنْ وَصَلَ هَذَا اَلْمُؤَشِّر إِلَى اَلصِّفْرِ سَتَجِدُ نَفْسَكَ فِي منطَقَةٍ مُظْلِمَةٍ تَخْلُو من حركةِ اَلْحَيَاةِ، وَنَحْنُ نُسَمِّيهَا "ظَلَام اَلْقُنُوطِ"، هَذِهِ اَلْمنطَقَة هِيَ منطَقَةٌ مظلمة يَدْخُلُهَا اَلْإِنْسَانُ يَأْسًا وَإِحْبَاطًا، سَوَاءً كَانَ هَذَا نتيجةً من أَعْمَالِ غيره أَوْ من أَعْمَالِهِ هوَ وَطَرِيقَةِ تَفْكِيرِهِ، وَمَا أَنْ يَدْخُلَهَا اَلشَّخْصُ حَتَّى تظلم اَلْحَيَاةُ أمام عَيْنَيْهِ، وَيَحْتَاجُ حَتْمًا لمن يُسَاعِدُهُ عَلَى عُبُورِ هَذَا اَلظَّلَامِ... هُنَا في مدينة السعادة لَنْ يَسْتَطِيعَ إِخْرَاجُكَ إِلَّا من أَرْسَلَ لَكَ اَلدَّعْوَة؛ لذا فنَحْنُ نُعْلِمُهُ بِسُقُوطِ اَلشَّخْصِ اَلَّذِي دَعاه فِي ظَلَامِ اَلْقُنُوطِ وَهُوَ عَلَيْهِ أَنْ يُنْقِذَهُ، أَمَّا من

يَسْقُطُ فِي هَذَا اَلظَّلَامِ من اَلْخَارِجِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَاعِده من حَوْلِهِ، لِيُعِيدُوا إِلَيْهِ نُور اَلْأَمَلِ الذي فقده.

كُنْت أسْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَقَدْ تَسَلَّلَ إِلَى قَلْبِي خَوْف بَارِد يُثْقِلُ صَدْرِي، وَلَكِنَّنِي ظللت صَامِتًا أسْتمع إِلَى مَا يَقُولُ، فَقَدْ أرْدَفَ:

- رُبَّمَا شعرت بِبُطْءِ خُطُوَاتِكَ بِمُجَرَّدِ دُخُولِكَ اَلْمَدِينَة، وَهَذَا طَبِيعِيٌّ؛ لِأن حَرَكَتَكَ بِالْمَدِينَةِ تَرْتَبِطُ بِمُؤَشِّرَاتِ السَّعَادَةِ لَدَيك، وَخَاصَّة مُؤَشِّر اَلرِّضَا، فَعِنْدَ دُخُولِكَ اَلْمَدِينَة تَكُونُ مُؤَشِّرَاتكَ كُلَّهَا عِنْدَ (٢٠٪) وَبَعْدَهَا تَزِيدُ وَتَنْقُصُ طِبْقًا لِمَا تَرَى وَتسْمعُ وَتَفْعَلُ فِي اَلْمَدِينَةِ... كُلَّمَا زَادَتْ مُؤَشِّرَاتكَ سَوْفَ تَشْعُرُ برَاحَة فِي اَلْحَرَكَةِ، وَسُهُولَةٍ فِي اَلْخُطُوَاتِ، وَكُلَّمَا اِرْتَفَعَت مؤشراتكَ خَفَّت حَرَكَتُكَ حَتَّى وُصُولِكَ لِلسَّعَادَةِ، فَالسُّعَدَاءُ يَشْعُرُونَ كَأنهُم يَطِيرُونَ فِي اَلْهَوَاءِ، وَيَتَحَرَّكُونَ وَهُم لَا تَكَادُ أَقْدَامهُم تلمس اَلْأَرْضِ من نَقَاءِ وَصَفَاءِ أَرْوَاحِهِم.

قُلْتُ مُؤَكِّدًا كَلَامهُ:

- بالفعلِ، لَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضًا من هَؤُلَاءِ أَثْنَاءَ دُخُولِي اَلْمَدِينَةَ.

أَكْمَلَ مَسْئُولُ اَلِاسْتِقْبَالِ كَلَامَهُ دُونَ تَعْقِيبٍ عَلَى مَا قُلْتُ:

- إن إِقَامَتَكَ هنا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ قَصِيرَة، عَلَيْكَ أَنْ تَبْذُلَ جُهْدكَ، وَتَتَبَّع مَا يَقُولهُ مُسَاعِدُكَ، وَتَسْعَى لِرَفْعِ مُؤَشِّرَاتكَ، وَخَاصَّة مُؤَشِّر اَلرِّضَا؛ لِتَعُودَ سَرِيعًا إِلَى مَوْطِنِكَ.

كَانَتْ هُنَاكَ عَشَرَات اَلْأَسْئِلَةِ اَلَّتِي تَدُورُ بِذِهْنِي، وَتُؤَرِّق عَقْلِي فَقُلْتَ مُتَسَائِلاً:

- وَلَكِنْ أَلَن تُؤَثِّر هَذِهِ اَلرِّحْلَة عَلَى حَيَاتِي؟ أَلَنْ تُؤَثِّر عَلَى وَظِيفَتَي؟
- لَا تقْلق، لَنْ تَتَأَثَّر حياتك ولا وظيفتك إِطْلَاقًا بِالْمُدَّةِ اَلَّتِي سَتَقْضِيهَا هُنَا، يُمْكِنَ أَنْ تَقُولَ إن لَنَا حِسَابًا زَمَنِيًّا مُخْتَلِفًا، عَلَيْكَ فَقَطْ أَنْ تُرَكِّزَ فِيمَا تَفْعَلُ، وَأَنْ تُشَاهِدَ اَلْفِيلْمَ اَلَّذِي أَعْدَدْنَاهُ لَكَ بِصُورَةٍ يَوْمِيَّةٍ، ولَا تَنْسَ هَذَا أَبَدًا، لِأنهُ هَامٌّ جِدًّا.

ثُمَّ نهضَ من مقعدِه، فَشعرت أنهُ يُرِيدُ إِنْهَاءَ اَلْمُقَابَلَةِ، فَقُلْتُ وَأَنَا أَنهض أيضاً:

- إن عِنْدِي عَشَرَات اَلْأَسْئِلَةِ اَلَّتِي أُرِيدُ لَهَا إِجَابَةٌ.

هَزَّ رَأْسهُ مُتَفَهِّمًا وَقَالَ:

- سَوْفَ تَعْرِفُ كُلَّ اَلْإِجَابَاتِ، وَلَكِنَّ اَلْحَيَاة مِثْل اَلسَّعَادَةِ بِحَاجَةِ إِلَى تَعَلُّمِ اَلصَّبْرِ... إن مَعَكَ مُسَاعِدكَ اَلشَّخْصِي، يُمْكِنُكَ أَنْ تَسْأَلَهُ مَا تَشَاءُ وَهُوَ يملك اَلْكَثِير من اَلْإِجَابَاتِ، كَمَا يُمْكِنُكَ أَنْ تُرْسِلَ لِي من خِلَالِ اَلْقَلَمِ اَلَّذِي مَعَكَ، وَسَأُجِيبُكَ فَوْرًا أن شَاءَ اَللَّهُ.

أدركتُ أنهُ لَا فَائِدَة من مُحَاوَلَتَي اَلْوُصُول إِلَى إِجَابَاتٍ أخْرَى من الرجلِ.

فشكرته..

وارتديتُ ساعتي الرقميّةَ التي يشيرُ مؤشّرُ الرضا فيها إلى (٢٠٪).

واصطحبتُ مساعدي الشخصيّ،

وخرجنَا إلى الطريقِ.

-١٦-
في غرفتي

كَانَ مُسَاعِدِي اَلشَّخْصِيُّ يَسْبِقُنِي، وَيَتَحَرَّكُ أَمَامِي، وَأَنَا خلفهِ لِيَدُلّني عَلَى مَكَانِ إِقَامَتِي.

ظِلٌّ يَتَحَرَّكُ أَمَامِي لِفَتْرَةٍ ثُمَّ تَوَقَّفَ أَمَامَ مَبْنَى كَبِير ثُمَّ قَالَ:

- هُنَا مكان إِقَامَتِكَ، إنهَا آخِر غُرْفَةٍ إِلَى اَلْيَمِينِ فِي اَلرِّوَاقِ.

دَلَفْنَا سَوِيًّا إِلَى اَلْمَبْنَى، وَقَطَعْنَا رِوَاقًا طَوِيلاً إِلَى أن وَصَلْنَا أَمَام غُرْفَتَي، وَأَخْرَجت اَلْجِهَازَ اَلصَّغِيرَ اَلَّذِي مَا أَنْ أخْرجتهُ حَتَّى وَجدت شاشَته قَدْ أضاءت وظَهَرَ عَلَيْهَا رمز مِفْتَاح دُخُولٍ، وَمَا أَنْ ضغطّ عَلَيْهِ حَتَّى فُتح اَلْبَاب أَمَامَنَا.

دَخلتُ إِلَى اَلْغُرْفَةِ،

وَمُسَاعِدِي اَلشَّخْصِي كان وَرَائِي هَذِهِ اَلْمَرَّة، وَوَقَفَتْ أَتَأَمَّلُهَا.

كَانَتْ غُرْفَة جَمِيلَة وَفَخْمَة،

كانت تَحْتَوِي عَلَى أَرِيكَةٍ وَثِيرَةٍ وَمنضَدَةٍ، وَفِي أَحَدِ أَرْكَانِهَا مَكْتَب عَلَيْهِ عِدَّة أَوْرَاقٍ، وَفي زاويةٍ أخرى مَقْعَد يَبْدُو مُرِيحًا، كَمَا تَحْتَوِي أيضاً عَلَى سَرِيرٍ لِلنَّوْمِ، وَخِزَانَةٍ لِلْمَلَابِسِ...

كان اَللَّوْنُ اَلْأَبْيَضُ يمتزجُ باللونين الْأَصْفَرُ وَالْبُنِّيُّ ليزيّن أركانَ اَلْغُرْفَةِ وأثاثها والتي كانت تتقابلُ فِي تَنَاسُقٍ مُحَبَّبٍ لِلنَّفْسِ.

كما كان حَائِطُ اَلْغُرْفَةِ اَلْوَاقع فِي مُقَابِلِ اَلْأَرِيكَةِ هُوَ شَاشَةُ عَرْضٍ كَبِيرَةٍ.
تَفَقَدتُ خِزَانَةَ اَلْمَلَابِسِ فَإِذَا هِيَ تَحْوِي أيضاً مُخْتَلِفَ أَنْوَاعِ وَأَلْوَان اَلْمَلَابِسِ اَلَّتِي أَفْضلُ اِرْتِدَائِهَا.
اِبْتَسمت اِبْتِسَامَةً وَاسِعَةً ثُمَّ سَألتُ مُسَاعِدِي اَلْآلِي:

- كَيْفَ تَعْرِفُونَ كُل هَذِهِ اَلْمَعْلُومَات عَنِّي؟! وَكيف تعرفون ما أُفضل من اَلْمَأْكُولَات وَالْمَلَابِسِ وَغَيْرِهَا؟!

رَدَّ اَلْمُسَاعِدُ اَلشَّخْصِيُّ بِصَوْتِهِ اَلْآلِيّ:

- عِنْدَمَا تَصِلُ دَعْوَتكَ لِمَدِينَةِ اَلسَّعَادَةِ يَتِمَّ تَكْوِين فَرِيقٍ لِلْإِعْدَادِ لِلْمُدَّةِ اَلَّتِي سَتَقْضِيهَا هُنَا، والذي يَقُومُ بِجَمْعِ بَيَانَاتٍ عَنْ كُلِّ مَا تُحِبُّ، وَعَنْ حَيَاتِكَ، وَيَقُومُ بِإِعْدَادِ بَرْنَامَج إِقَامَتِكَ، وَإِعْدَاد اَلْأَفْلَامِ وَالْعُرُوضِ اَلَّتِي تُشَاهِدُهَا يَوْمِيًّا.
- وَمن دَعَانِي إِلَى هَذِهِ اَلرِّحْلَةِ؟
- لَنْ يمكنك أَنْ تَعْرِفَ هَذَا اَلْآن، وَلَكِنَّكَ سَوْفَ تَعْرِفُهُ خِلَالَ إِقَامَتِكَ بِالْمَدِينَةِ.
- هَلْ يُمْكِنُ إِذاً أن تُخْبِرُنِي كَيْفَ تَتِمُّ اَلدَّعْوَة إِلَى هَذِهِ اَلرِّحْلَةِ؟
- يَجِب على صاحبِ الدعوةِ أَنْ يكُونَ قَدْ أَقام سابقا فِي هَابِينِيسِيا، وَبَعد عودته إِلَى وَطَنِه يُمْكِنُه دَعْوَة شَخْصٍ وَاحِدٍ كُل خَمْسِ سَنَوَاتٍ، وَإِنْ سَقَطَ هَذَا اَلشَّخْصِ فِي ظَلَامِ اَلْفُنُوطِ أثناء اقامته وَقَرَّر

الداعي إِنْقَاذَهُ فَإِنه لَنْ يسْتَطِيعَ أَنْ يدْعُوَ شَخْصًا آخَر إلى المدينةِ طَوَالَ عُمْرِه.

جَلستُ عَلَى اَلْأَرِيكَةِ اَلْمُرِيحَةِ، وَقلتُ لِمُسَاعِدِي:

- وَهَلْ هُنَاكَ طَرِيقَة أُخْرَى غَيْر اَلدَّعْوَةِ لِلْوُصُولِ إِلَى اَلْمَدِينَةِ.

رَدَّ بِنَفْسِ صَوْتِهِ اَلْمَعْدِنِيّ اَلَّذِي بَدأتُ أَن أعْتَادَ عَلَيْهِ:

- المنطقةُ الوحيدةُ التي يصلُ اليها الناسُ بدون دعوةٍ هي منطقةُ ظلامِ القنوط، بَعْضُ اَلْأَشْخَاصِ يَسْقُطُونَ يَوْمِيًّا فِي تِلْكَ اَلْمنطَقَةِ اَلْمُظْلِمَةِ من اَلْمَدِينَةِ، بَعْضُهُمْ يَظَلُّ بِهَا، وَبَعْضهُمْ يَخْتَفُونَ بَعْد فَتْرَةٍ عِنْدَمَا يَجِدُونَ من يُسَاعِدُهُمْ عَلَى اَلْخُرُوجِ من هَذِهِ اَلْحَالَةِ.

اِسْتمعتُ إِلَيْهِ، وَغرقتُ فِي أَفْكَارِي حَوْلَ طبيعة ظَلَام اَلْقُنُوطِ هَذَا!

إن كُلَّ مَا أَعْلمهُ عَنْهُ أنهَا منطَقَةُ يَأْسٍ قَدْ يسقطُ فيهَا اَلْإِنْسَانُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ بِحَيَاتِهِ،

وَمَا أَتَمَنَّاهُ أَلَّا أَقَعَ فِي هَذَا اَلظَّلَامِ، أَوْ أَيًّا مِمَّنْ أحبَّهم،

وَلَكِنَّ هَذَا اَلظَّلَام مَوْجُود، وَكُلُّنَا مُعَرَّضِينَ لَهُ، لِذَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَكَاتَفَ لِكَيْلَا يَقَع أَحَدُنَا بِهِ،

يَنْبَغِي أَنْ نُسَامِحَ بَعْضنَا، وَأَنْ نُهَوِّنَ عَلَى أَنْفُسِنَا طَرِيق اَلْحَيَاةِ، يَنْبَغِي أَنْ نَكُونَ أَكْثَر رِفْقًا وَحُبًّا وَرَحْمَة بِبَعْضِنَا، وَيَنْبَغِي عند وَقَوع أَحَدنَا فِي هَذَا اَلظَّلَامِ أَنْ نُنْقِذَهُ وَنُسَاعِدُهُ، وَنُنِيرُ لَهُ حَيَاتِهِ من جديد وَنُعْطِيه اَلْأَمَل بِمَا نَحْمِلُ فِي قُلُوبِنَا من حُبٍّ وَمن رَحْمَةٍ وَمن صِدْقٍ.

ثم رحلتُ مَعَ أَفْكَارِي حَتَّى نمتُ.

-١٧-

المدينة

اِسْتيقظت عَلَى صَوْتِ مُسَاعِدِي وَهُوَ يَقُولُ لِي:

- لَقَدْ تَمَّ إِعْدَاد طَعَامِكَ.

نَظَرْتُ فَوَجَدْتَهُ قَدْ وَضَعَ أَمَامِي وَجْبَةً تحتوي على قِطْعَتَي لَحْمٍ مَشْوِيٍّ، وَأَرْزٍ أَبْيَضٍ، وَبَعْضِ اَلْخُضَارِ وَالْفَاكِهَةِ، وَكان هَذا هو طعامي اَلْمُفَضَّل تَمَامًا.

أَثْنَاءَ تناولِ الطعامِ، بَدَأَ مُسَاعِدِي فِي إِعْطَائِي بَعْض اَلنَّصَائِحِ قَائِلاً:

- يَجِب أَنْ تَبْدَأَ اَلتَّحَرُّكَ فِي اَلْمَدِينَةِ اليوم، وَالتَّعَامُل فِيهَا حَتَّى تَزِيدَ من مُؤَشِّرَاتِ اَلسَّعَادَةِ لَدَيْكَ، وَلَا تَنْسَ أَن تُحَافِظَ عَلَى مُؤَشِّرِ اَلرِّضَا لَدَيْكَ، أنفق اَلْمَال اَلْمَوْجُود بِالصُّنْدُوقِ عَلَى اَلْأَعْمَالِ وَالْأَشْيَاءِ اَلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَزِيدَ من مُؤَشِّرَاتِك، وَلا تقلق، فهُنَاكَ مَبْلَغٌ ماليٌّ يَوْمِيٌّ سَوْفَ يَكُونُ تَحْتَ تَصَرُّفِكَ، حاول أَنْ تَجْعَلَ اَلْمَالَ يَعْمَلُ من أَجْلِ سَعَادَتِكَ.

رَددتُ بِابْتِسَامَةٍ:

- عَظِيم.

أكمل مساعدي:

- هُنَاكَ حِكْمَةٌ يَجِبُ أَنْ أَقُولَهَا لَكَ اَلْآن، وَهِيَ أن: نَوَايَا اَلْإِنْسَانِ اَلسَّلِيمَةِ وَالصَّافِيَةِ تُسَاعِدُهُ فِي أَنْ يَكُونَ سَعِيدًا.

رَددتُ بِسُرْعَةٍ، وأنا أنهضُ من مكاني:

- شُكْرًا لَكَ، سَأَتَذَكَّرُهَا.

كَانَ يُكْمِلُ مَا يَقُولُ وَكَأنهَا رِسَالَة مُسَجَّلَة:

- وَلَا تَنْسَ أَنْ تَزُورَ مَيْدَانَ اَلْأُمْنِيَاتِ.

اِبْتسمت وَخرجت من غُرْفَتِي بِلَا تَعْلِيقٍ.

مَشَيتُ قَلِيلاً حَتَّى وصلتُ مَيْدَانَ اَلْأُمْنِيَاتِ . . .

كَانَ ميداناً وَاسِعاً وَجَمِيلاً كَكُلِّ اَلْمَدِينَة، وَفِي وَسَطِهِ تَمَامًا كَانَ هُنَاكَ تِمْثَالٌ لِرَجُلٍ وَاِمْرَأَةٍ وَأَطْفَالٍ يَرْفَعُونَ أَيْدِيهِمْ إِلَى اَلسَّمَاءِ . . .

كَانَ اَلْمَيْدَانُ مُكْتَظًّا بِالنَّاسِ من كُلِّ أَنْحَاءِ اَلْعَالَمِ، وَعَلَى اِخْتِلَافِهِم كَانت تجمعُهم أمنياتُهم في أَنْ يَكُونُوا سُعَدَاء، وَرحلتهم من أجلِ البَحْثِ عن السَّلَامِ اَلدَّاخِلِيِّ.

كَانَتْ هُنَاكَ مَكْتَبَة صَغِيرَة، وَحَوْلَهَا مَقَاعِد مُعَدَّة لِلْقِرَاءَةِ.

اِقْتربتُ من اَلْمَكْتَبَةِ فَإِذَا بِآلِيٍّ صَغِيرٍ يديرُ المكتبةَ يَقُولُ مرحبًا:

- أَهْلاً بِكَ، هل تريدني أنْ أساعدُك في اختيارِ كتابِكَ؟ فقط أخبرني فِي أَيِّ فَرْعٍ من فُرُوعِ اَلْقِرَاءَةِ تُرِيدُ أَنْ أَقْترح عَلَيْكَ كُتُبًا؟

أَجَبْتُهُ وَأَنَا أفَكِّرُ:

- أرِيدُ كِتَابًا يَزِيدُ من سَعَادَتِي.

أَجَابَنِي:

- عِنْدَمَا تقرأ مَا تُحِبُّ سَوْفَ تَزِيدُ سَعَادتكَ.

قَلت مُتَسَائِلاً:

- وَهَلْ هُنَاكَ كُتب عَنْ اَلسَّعَادَةِ؟

رَدَّ قَائِلاً:

- هُنَاكَ مَلَايِينُ اَلْكُتُبِ وَبِكُلِّ اَللُّغَاتِ عَنْ اَلسَّعَادَةِ، إن كُل إِنْسَانٍ فِي هَذَا اَلْعَالَمِ يَبْحَثُ عَنْهَا، وَلَكِنَّهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي طُرُقِ اَلْوُصُولِ إِلَيْهَا.

قُلْتُ مُحَاوِلاً أن أستفيد بِاَلْوَقْت اَلَّذِي لَدَيَّ:

- إذاً، أنا أرِيدُ كِتَابًا رَائِعًا عَنْ اَلسَّعَادَةِ.

وَمن فَوْرِهِ أَحْضَرَ كِتَابًا عَنْ اَلسَّعَادَةِ،

فَأَخذتهُ منه وَجلستُ عَلَى أَحَدِ اَلْمَقَاعِدِ لِأَقْرَأَهُ.

-١٨-

نداء

بينما أَنَا أَجْلِسُ فِي مَقْعَدَيْ،

لَمحتُ فَتَاةً شَابَّةً تَبْكِي بدموعٍ غزيرةٍ وبِصَمْتٍ، وَالْغَرِيب أنهُ لَا أَحَد قَدْ اِلْتَفَتَ إِلَيْهَا، أَوْ سَأَلَهَا عَنْ بُكَائِهَا أَوْ حُزْنِهَا.

تَرَدَّدتُ لِلَحْظَةٍ، ثُمَّ قُمْتُ من مَقْعَدَي، وَذَهبتُ إِلَيْهَا، وَسَألتهَا:

- أولاً، اِقبلي اعتذاري لِمُقَاطَعَتِي وَلِتَدَخُّلِي، لَقَدْ رَأَيْتُكِ تَبْكِينَ فَاقْتربتُ لِأسْأَلكِ إِنْ كُنْتِ بِحَاجَةٍ لِلْمُسَاعَدَةِ.

نَظَرَت بِلَهْفَةٍ كَأنهَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ منْ يَسْأَلُهَا هَذَا اَلسُّؤَالِ، وَقَالَت:

- نعم، أَنَا أَحْتَاجُ اَلْمُسَاعَدَة.
- وَهَلْ أَسْتَطِيع أَنْ أسَاعِدُكِ؟

أَشَارَت بِيَدِهَا إِلَى مَقْعَدٍ أَمَامَهَا، وَقَالَت:

- هل يمكن أن تجْلِس هنا وتقول لي مَتى وَصلت إِلَى هَابِينِيسِيا؟

أجبتُ مرتبكاً، وَقَدْ شَرعتُ فِي أَنْ أجْلِسَ عَلَى اَلْمَقْعَدِ الذي أشارت إليه:

- لقد وصلتُ اَلْيَوْم.

ظهرَ اَلِارْتِبَاكُ عَلَى وَجْهِهَا، وَقَالَت:

- هَذَا يُعَقِّدُ اَلْأُمُورَ أَكْثَر، فَلَا أدْرِي إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ إِرْشَادِي، وَمُسَاعَدَتِي أَمْ لَا؟

ثُمَّ نَظَرَت إِلَيّ نَظْرَةً حَزِينَةً، وَقَالَت:

- أَنْتَ اَلْوَحِيدُ اَلَّذِي عَرَضَ مُسَاعَدَتِي هُنَا، وَلِذَلِكَ سَأَحْكِي لَكَ قِصَّتِي، ربّما يمكنكَ مساعدتي، وأحبّ أن أعرّفك بنفسي، أَنَا اِسْمِي (نِدَاء).

قلتُ مُحَاوِلاً أَن أُزِيلَ بَعْضًا من قَلَقِهَا:

- أَهْلاً نداء، أَنَا اِسْمِي يُوسف، ولن أتركَكِ دون مساعدة.

هزّت رأسَها متفهمة، فأكملتُ حديثي قائلا:

- مَا دُمْتُ قَدْ وَجدتُ نَفْسِي رَاغِبًا فِي مُسَاعَدَتِك؛ فَقَدْ يَكُون اَلْحَل عِنْدِي، وَقَد يَكُون هَذَا فِي بَرْنَامَجِ رِحْلَتِي وَرِحْلَتَكِ، وَلِهَذَا لَمْ يَتَقَدَّم أَحَدٌ آخرٌ لِلْمُسَاعَدَةِ غَيْرِي.

كان حديثِي يبدو منطقياً للغايةِ، لذا فقد بَدَأَتْ نداء تَهْدَأ، وَهِيَ تُفَكِّرُ بِكَلَامِي، ثُمَّ قَالَت:

- كَلَامُكَ صَحِيحٌ ومنطقيٌّ جِدًّا، وَهُوَ مَعْرِفَةٌ مُتَقَدِّمَةٌ لَمن وَصَلَ اَلْمَدِينَةَ اَلْيَوْم فقط.

ثُمَّ أَرْدَفَت:

- إن خَطِيبِي (أَحْمَد) هُوَ من وَجّه اَلدَّعْوَة إِلَيّ لِلْقُدُومِ إِلَى مَدِينَةِ اَلسَّعَادَةِ، إنهُ يَتوقّع أن رِحْلَتِي هَذِهِ سَتَجْعَلُنَا سُعَدَاء سَوِيًّا، وَلَكِنْ.....

قَاطَعتهَا بقولِي:

- وَلَكِنْ كَيْفَ وَصَلَكِ أن أَحْمَد هُوَ منْ وَجّه لَكِ اَلدَّعْوَةُ؟!
- إنهُمْ عَادَة مَا يُرْسِلُونَ لَكَ رِسَالَة يُوَضِّحُونَ بهَا اِسْم من وَجّه لَكَ اَلدَّعْوَة، ويَحْدُثُ هَذَا بَعْد مرورِ عِدَّةِ أَيَّامٍ من وصولِك.
- حسناً، الآن أخبريني مَا اَلَّذِي كَانَ يُبْكِيكِ؟
- سوفَ أحاولُ أن أشرح لك.

ثم عدّلت من جلستِها وقالت:

- بعد مرورِ عدة أيامٍ لك هنا سَوْفَ تَعْرِفُ اَلْكَثِيرَ عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ أَفْعَالِكَ الماضيةِ، وَمع مرورِ أيامي، فقد نَدمتُ ندماً شديداً عَلَى أَفْعَالِي وَطَرِيقَة تَعَامُلِي مَعَ كُل من حَوْلِي.

تَسَاءلتُ مُقَاطِعًا إِيَّاهَا مرة أخرى:

- وَكَيْفَ وَصَلَكِ هَذَا اَلشُّعُور؟

رَدَّتْ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى اَلْأَسْفَلِ:

- سَوْفَ تَلْمِسُ هَذَا فِي أَيَّامِكَ هُنَا، وَسَوْفَ تُدْرِكُه، إن مُشْكِلَتِي اَلْآنِ أن مُؤَشِّرَ اَلرِّضَا لَدَيَّ فِي اِنْخِفَاضٍ مُسْتَمِرٍّ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا يَزِيدُ من هَذَا اَلْمُؤَشِّرِ، وَلَقَدْ وَصَلَ إِلَى (٥٪) كَمَا تَرَى.

ثم رَفَعَت سَاعَتهَا أَمَامِي وَقَدْ تَحَوَّلَت إِلَى اَللَّوْنِ اَلْأَحْمَرِ، وَأَرْدَفَت:

- وَلَوْ اِسْتَمَرَّ هَذَا اَلِانْخِفَاض، وَوَصَلَ إِلَى اَلصِّفْرِ.....

أَكْملتُ أنا كَلَامَهَا:

- سَتَسْقُطِينَ فِي ظَلَامِ اَلْقُنُوطِ.

- نعم، وهذا ما لا أريده، لقد أَتَيْتُ إلى هُنَا إلى مَيْدَان اَلْأُمْنِيَاتِ لأن هَذَا مَا نَصَحَنِي بِهِ مُسَاعِدِي اَلْآلِي.

- لقد نَصَحَنِي مُسَاعِدِي اَلْآلِي أيضاً بهذا!!! لا بد أن لهذا سبباً!!!

أدركتُ أن حَلَّ مُشْكِلَتِهَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عِنْدِي.

تَذكَّرتُ كُل مَا قَرَأْتُهُ حالاً فِي كِتَابِ اَلسَّعَادَةِ الذي معي، وَحَاولتُ أَن أقدّم لَهَا نَصَائِحي وَقلت:

- هَلْ تُرِيدِينَ أَنْ تَسْتَعِيدِيَ حَيَاتكِ؟

اِنْتَبَهَت نداء إِلَى سُؤَالِي، وَقَالَتْ بِلَهْفَةِ شَدِيدَةٍ:

- نَعم.

أَكْملتُ حَدِيثِي:

- وَهَلْ تُرِيدِينَ أَنْ تَعُودِي إِلَى أحمد؟

رَدَّتْ بِنَفْسِ اَلْحَمَاسِ:

- بِالطَّبْعِ، إن هَذِهِ اَلتَّجْرِبَة قَدْ أَثَّرَت بِي كَثِيرًا، وَأَدْركتُ كَمْ أن أَحمد يُحِبُّنِي، وَكَيْفَ يُرِيدُ أَنْ نَبْنِيَ بَيتنَا عَلَى أَسَاسٍ مَتِينٍ، كَانَ من اَلْمُمْكِنِ أَنْ يَتْرُكَنِيَ وَيُحَاوِلُ أَن يَجِدَ منْ هِيَ أَفْضَلُ مني، وَلَكِنَّهُ يريدني أنا، ويريدني أَفْضل لأنّه يعرفُ ما في قلبي من حبٍ ورحمةٍ لكل الناس، لِهَذَا أَتَمَنَّى أَنْ أَعُود إلي وطني وإليه لِأنني عَرفتُ مَعْنَى اَلسَّعَادَةِ هنا.

اِنْدهشتُ من إِجَابَتِهَا فَقُلْتُ لَهَا:

- وَرَغْم بُكَائِكِ فَأَنْتِ تَعْتَقِدِينَ أن تَجْربتكِ هُنَا نَاجِحَة؟!!

- بِالطَّبْعِ نَاجِحَة، وَأَشْعُرُ بِالتَّغْيِيرِ اَلْإِيجَابِيّ، بَلْ أَتَمَنَّى أَنْ أَعُودَ لِأُكْمِل حَيَاتِي بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَكُون سِرًّا لِلسَّعَادَةِ فِي حَيَاةِ اَلْجَمِيعِ.

هُنَا أَغْمضتُ عَيْنِيّ، وَقلتُ لَهَا:

- حَاوِلِي إِغْمَاض عَيْنَيْكِ مثلي، وَتَخَيُّلِ عَوْدَتِكِ إلى حياتكِ، وَرَدَّة فِعْلِ أَحمد، وَكَيْفَ أَصْبَحَت أَفْعَالكِ اَلْجَدِيدَة مَعَ من حَوَّلَكَ، وَكَيْفَ

أَصْبَحَت حياتكِ كَمَا تَتَمَنَّيْن تماماً، فكرِي فِي اِقْتِرَابِ يَوْمِ زِفَافِكَ بِأحمد وتخيّلي تفاصيلَه، وَكَيْفَ أنهُ لَا زَالَ لَدَيْكُمَا عُمْرٌ بِكَامِلِهِ تَغْمُرهُ اَلسَّعَادَةُ.

كَانَتْ بِالْفِعْلِ قَدْ أَغْمَضَت عَيْنَيهَا، وَظَهَرَ بَعْضُ اَلْهُدُوءِ عَلَى وَجْهِهَا، وكم تَمَنَّيْتُ أن كَلَامِي هَذَا يُفِيدُهَا فَقَدْ قَرَأْتُهُ فِي اَلْكِتَابِ اَلَّذِي مَعِي.

ثم أكملتُ كَلَامِي:

- يَجِب عَلَى اَلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَقَّعَ دَائِمًا اَلْخَيْر، وَأَنْ يطمْئن، وَأَنْ يُحسنَ اَلظَّن بِاَللَّهِ، فَإن حُسْنَ اَلظَّنّ بِاَللَّهِ عِبَادَةً.

ظَهَرَتْ اِبْتِسَامَة خَفِيفَة عَلَى وَجْهِ نداء، وَهِيَ تَفْتَحُ عَيْنَيْهَا، وَتَنْظُرُ إِلَى سَاعَتِهَا وَتَقُولُ:

- لَقَدْ اِرْتَفَعَ مُؤَشّرُ اَلرِّضَا إِلَى (١٠٪).

وَأَرْدَفَت قَائِلَةً:

- شُكْرًا لَكَ، لَقَدْ نَجحت فِي مُسَاعَدَتِي، وَالْآنَ أَعْرِفُ كَيْفَ أستمر، وَأَعُودُ إِلَى حَيَاتِي.

مددتُ يَدِي إِلَيْهَا بِالْكِتَابِ اَلَّذِي مَعِي وَقلتُ:

- هَذَا كِتَابٌ عَنْ اَلسَّعَادَةِ، حَاوِلِي قِرَاءَتَهُ، وَالِاسْتِفَادَة منهُ.

كَانَتْ تَشْكُرُنِي، وَمُؤَشّرُ اَلرِّضَا لَدَيْهَا مَا زَالَ يَزْدَادُ وَقَدْ وَصَلَ إِلَى (٢٠٪).

كنت سعيداً لمساعدتها، وعندما نظَرتُ إلى سَاعَتِي وجدت أنّ مُؤَشّرَ اَلرِّضَا قد اِرتفع لَدَيَّ أَنَا أَيْضًا ووصلَ إِلَى (٣٠٪).

وَ هَكَذَا اَلْحَيَاةُ،

إنْ أَرَدت أَنْ تَكُونَ سَعِيدًا يَجِبُ أَنْ تُشَارِكَ اَلْآخَرِينَ سَعَادَتَكَ، وَعَطَائَكَ، وَبَعْض وَقْتِكَ.

-١٩-

العرض الأول

عُدْتُ إِلَى غُرْفَتَي، وَجلست عَلَى اَلْأَرِيكَةِ مُنْتَظراً مُسَاعِدِي اَلَّذِي اِقْتَرَبَ قَائِلاً:

- إنهُ مَوْعِد اَلْعَرْضِ اَلْيَوْمِيّ، سَوْفَ تُشَاهِدُ أَحْدَاثاً حَقِيقِيَّةً سَتُسَاعِدُكَ عَلَى أَن تفهم نَفْسكَ أَكْثر، وَسَوْفَ تُسَاهِمُ فِي إِسْرَاعِ رِحْلَتِكَ نَحْوَ اَلتَّغْيِيرِ، حاول فَقَطْ أَنْ تَكُونَ هَادِئًا؛ فَقَدْ تُؤَثِّرُ هَذِهِ اَلْأَحْدَاثِ عَلَي مؤشراتِك.

أجبت بِسُرْعَةٍ:

- لَا بَأْس، سَأَكُونُ هَادِئًا، فَلْتَبْدَأْ اَلْعَرْض اَلْأَوَّل.

أَظْلَمَت اَلْغُرْفَةُ، وَبَدَأَ اَلْعَرْضُ.

رَأَيْتُ فِي بِدَايَةِ اَلْعَرْضِ رَجُلاً أَظُنُّ أَنِّي أَعْرِفُهُ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ يَبْدُو من حَدِيثِهِ وَلَهْجَتِهِ أنهُ مُدِيرُ اَلْقِسْمِ اَلَّذِي يَعْمَلُ بِهِ الرجلُ الأولُ.

كَانَ اَلرَّجُلُ يَقُولُ لِمُدِيرِ اَلْقِسْمِ:

- وَلِمَاذَا يَتِمُّ فَصْلِي من عَمَلِي يَا سَيِّدِي؟

أجاب اَلْمُدِيرُ بِغِلْظَةٍ:

- لِأنكَ أهملت فِي عَمَلِكَ.

قال اَلرَّجُلُ مُحَاوِلاً أَنْ يَسْتَعْطِفَهُ:

- أَنْتَ تَعْلَمُ يَا سَيِّدِي أنني لم أهمل، وَأنّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ زَمِيلِي الآخر اِبْن مُدِيرِ اَلشَّرِكَةِ.

أَشَاحَ اَلْمُدِيرُ بِوَجْهِهِ حَتَّى لَا يَرَاهُ اَلرَّجُلُ، وَقَالَ:

- لا داعِي لهذَا الحديث، وتلكَ المبررات، لَقَدْ تَمَّ اِتِّخَاذ اَلْقَرَار، وَلَقَدْ اِنْتَهَى عَمَلكَ هُنَا.

طَأْطَأَ اَلرَّجُلُ رَأْسَهُ ثُمَّ ذَهَبَ من اَلْمَكْتَبِ.

كُنْتُ أُشَاهِدُ محاولًا أن أَتَذَكَّر هَذَا اَلرَّجُل.

نعم الآن قَد تَذَكَّرتهُ؛ إنهُ ذَلِكَ اَلرَّجُل اَلَّذِي حَاوَلَ أَنْ يُحَدِّثَنِيَ أَمَامَ مَتْجَرِ بَيْعِ اَلْأَغْذِيَةِ، وَاَلَّذِي جَعَلَنِي أَعُودُ سَرِيعًا إِلَى مَنْزِلِي فِي هَذَا اَلْيَوْم.

ظَهَرَتْ لَوْحَةٌ عَلَى اَلشَّاشَةِ تقول أنهُ قَدْ مَرَّ سِتَّةَ أَشْهُرٍ مُنْذ فَصْلِ اَلرَّجُلِ من عَمَلِهِ . . .

ظهرَ اَلرَّجُلُ مَرَّةً أُخْرَى، وَهُوَ يَدْخُلُ من بَابِ مَنْزِلِهِ اَلْبَسِيطِ وَيَجْلِسُ عَلَى مَقْعَدٍ بِجِوَارِ اَلْبَابِ، وَيَقُول:

- مرت الأيامُ والشهورُ، ولا أزال لَا أَجِدُ عَمَلاً حَتَّى اَلْآن، وَلَقَدْ نَفَّذَت كُل مُدَّخَرَاتِي، ولا أعلمُ ماذا أفعلُ حتّى لأطعم أطفالي.

فُتح أَحَدُ اَلْأَبْوَابِ بِالْمَنْزِلِ،

وَخَرَجَ طِفْلَان جَمِيلَان من إحدى الغرفِ، ذَهَبُوا بِفَرْحَةٍ نَاحِيَة أَبِيهِم اَلَّذِي اِحْتَضَنَهُم، وَاَلدُّمُوع تَمْلَأُ عَيْنَيْهِ.

قَالَ أَحَدُ اَلطِّفْلَيْن:

- مَاذَا أَحضرت لَنَا لِنَأْكُلَ يا أبي، فَنَحْنُ نَشْعُرُ بِالْجُوعِ اَلشَّدِيدِ.

اِبْتَسَمَ اَلرَّجُلُ، وَقَالَ وَالْحُزْنُ يَبْدُو عَلَيْهِ:

- لَقَدْ أَرْهَقَنِي اَلْعَمَلُ، وَنَسيتُ إِحْضَارَ اَلطَّعَامِ، سَأَنْزِلُ فَوْرًا لِإِحْضَارِهِ لَكُمْ.

قال اَلطِّفْلُ اَلْأَكْبَرُ:

- أَنْتَ تُرْهِقُ نَفْسَكَ كَثِيرًا من أَجْلِنَا، وَخُصُوصًا بَعْدَمَا تُوُفِّيَت أُمُّنا مُنْذ عَامَيْنِ.

اِبْتَسَمَ اَلْأَب مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ قَالَ:

- إن اَلْأَبَ هُوَ السندُ لِأَبْنَائِهِ، وَهُوَ اَلْأَمَانُ لهم، إن لَم تَكُونُوا سُعَدَاءَ لَنْ يَكُونَ أَبُوكُمْ سَعِيدًا أيضاً، أَنْتُمْ حَصَادُ عُمْرِي، وَأَنْتُمْ أَمَانَة أُمِّكُمْ - رَحِمَهُ اَللَّهُ عَلَيْهَا - اَلْغَالِيَةِ.

ثُمَّ قَامَ لِيَخْرُجَ من اَلْبَابِ.

كُنْتُ أَتَوَقَّعُ مَا سَيَحْدُثُ بعدهَا،

فَقَدْ اِنْقَبَضَ قَلْبِي بِشِدَّةٍ عِنْدَمَا رَأَيْتُ هَذَا اَلْأَب اَلنَّبِيل اَلْمُحِب لأبنائِه، وَهُوَ يحاول مُحَادَثَتِي.

لَقَدْ أَشَارَ إِلَيّ فَتَجاهلت إِشَارَتهُ، ثُمَّ اِعْتَقَدَ أنني لَمْ أَرَ إِشَارَتهُ فَأتى من خلفي، وَحَدَّثَنِي أَمَامَ مَتْجَرِ بَيْعِ اَلْأَغْذِيَةِ، وَقَالَ:

- أَوَدُّ أستاذي أَنْ أَطْلُبَ منكَ شَيْئًا.

أَشَحْتُ بِوَجْهِي عَنْهُ، وَقلتُ:

- من اَلْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تَبْحَثَ عَنْ عَمَلٍ بدلاً من أن تسأل الناس.

أجابني اَلرَّجُل، وقد بدا التأثّر على وجهِه:

- وَلَكِنِّي بِالْفِعْلِ أبْحَثُ عَنْ عَمَلٍ.

هَزَزْتُ كَتِفِي لامبالياً، وَذهبتُ إِلَى مَنْزِلِي مُبَاشَرَة، وَتَجاهلت حَتَّى اَلدُّخُول إِلَى اَلْمَتْجَرِ.

جَلَسَ اَلرَّجُلُ أَمَامَ اَلْمَتْجَرِ، وَالدُّمُوع فِي عَيْنَيْهِ، أنهُ كان يُرِيدُ طَعَاماً لِأَوْلَادِهِ.

بَكَيْتُ أَنَا اَلْآخَر بِشِدَّةٍ، وَسَأَلتُ نَفْسِي:

- لِمَ كسرت قَلْبَ هَذَا اَلرَّجُلِ بِهَذَا اَلشَّكْل؟ لِمَاذَا لَمْ أَعْطِهِ فُرْصَةً لِأَسْمَعهُ؟ أَوْ أَعْرِفُ حَتَّى مَاذَا يُرِيدُ؟ مَاذَا كَانَ يَضِيرُنِي لَوْ أنني اشْتريت طَعَاماً لِأَوْلَادِهِ؟

كُنْتُ نَادِمًا بِشِدَّةٍ على هذا الفعلِ، وعلى حالةِ هذا الرجلِ.

عدتُ أشاهدُ العرضَ حيث كان الرجلُ يَجْلِسُ أَمَامَ اَلْمَتْجَرِ حَتَّى جَاءَ شَخْصٌ يَحْمِلُ طَعَامًا، وَأَعْطَاهُ لَهُ، وَقَالَ:

- هَذِهِ هَدِيَّةٌ لَكَ فَلْتَأْخُذهَا.

ثُمَّ اِنْتَهَى اَلْعَرْضُ اَلْأَوَّلُ بِهَذَا اَلْمَشْهَدِ.

تَذَكَّرَتْ كَلِمَات نداء أَثْنَاءَ لِقائنَا اَلْيَوْم عِنْدَمَا قَالَت:

- سَوْفَ تَعْرِفُ هُنَا اَلْكَثِيرَ عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ أَفْعَالِكَ.

أَدْركتُ كَمَّ اَلنَّدَمِ اَلَّتِي كَانَتْ تشعر به بَعْدَمَا رَأت أَفْعَالَهَا اَلَّتِي رُبَّمَا كَانَتْ تَشَابُهَ أَفْعَالِي اَلَّتِي أَرَاهَا اَلْآنَ . . .

وَشعرتُ بِالْفِعْلِ بِبَدْءِ اَلتَّغْيِيرِ دَاخِلِي؛ لِأننِي أَتَمَنَّى الآن أَنْ أَرَى هَذَا اَلرَّجُل مَرَّةً أُخْرَى،

وَأُسَاعِدُهُ.

-٢٠-

من طفولتي

لاحظتُ فِي اَلصَّبَاحِ اَلتَّالِي اِنْخِفَاضَ مُؤَشِّرِ اَلرِّضَا لَدَى، وَأَدْرَكْتُ أن هَذَا طَبِيعِيٌّ بَعْدَ اَلْعَرْضِ اَلَّذِي شاهدتهُ أَمْس، فَمَا فعلتُهُ لَمْ يَكُنْ أَبَدًا لِيُرْضِيَنِي.

قرَّرتُ أَن أَخرج مُبَكِّراً فِي هَذَا اَلْيَوْمِ لِأُحَاوِلَ أن أَرْفَعَ مُؤَشِّرَات اَلسَّعَادَةِ لَدَى.

أخذتُ اَلْمَالَ مَعِي، وَحَاولتُ أَن أعْطى كُل منْ أُقَابِلُهُ منه، وَلَكِنْ فُوجئت أن هَذَا لَمْ يُفْلِح اَلْبَتَّة.

لَقَدْ رَفَضَهُ اَلْجَمِيعُ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ مني إِلَّا شَخْصٌ وَاحِدٌ جَبْرًا لِخَاطِرِي، شخصٌ يَعْلَمُ جيداً أن من عَوَامِلِ اَلسَّعَادَةِ جَبْر اَلْخَوَاطِرِ.

أَدْركت أن اَلْجَمِيعَ هُنَا لَدَيْهِ أَمْوَال اَلْمَدِينَةِ اَلْمُتَجَدِّدَةِ يومياً، وَيَجِب أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ أَفْكَارٌ أخْرَى لِاسْتِغْلَالِ هذا اَلْمَال اَلْمَوْجُودِ مَعِي فِي سَعَادَتِي وَسَعَادَتِهِمْ.

يَجِب أَنْ أَجْعَلَ هذا اَلْمَال يَعْمَلُ من أَجْلِ سَعَادَتِي، وَسَعَادَة اَلْجَمِيعِ، وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ لِهَذَا أَنْ يَحْدُثَ؟

كُنْتَ أَمْشِي بَطِيئًا كَعَادَتِي مُنْذُ أَنْ أَتَيْتُ إلى اَلْمَدِينَةُ، وَكُنْتُ غَارِقًا فِي أَفْكَارِي حَوْلَ كَيْفِيَّةِ اِسْتِغْلَالِ اَلْمَالِ، ولكن اِسْتَوْقَفَنِي وُجُود حَدِيقَةٍ أَمَامِي بِهَا بَعْض أَلْعَابِ اَلْأَطْفَالِ.

لَا أَعرفُ لِمَ شعرت بِكُلِّ هَذَا اَلْحَنِين لِهَذَا اَلْمَكَان.

جلستُ عَلَى أَحَدِ المَقَاعِدِ القريبة،

كَانَت الحديقةُ فِي اَلْبِدَايَةِ تَبْدُو أنهَا مَهْجُورَةٌ، ثُمَّ ظَهَرَ أَمَامِي بَعْضُ اَلْأَطْفَالِ يَلْعَبُونَ.

كُنْتُ أَعْلَمُ أن اَلْأَطْفَالَ لَا تَتِمُّ دَعْوَتهُمْ إِلَى اَلْمَدِينَةِ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَسْتَقِيمُ هَذَا، وَهُمْ أَمَامِي يَلْعَبُونَ!!!

تَأملتُهم قَلِيلاً . . .

وَعِنْدَهَا شَاهدتُ نَفْسِي صَغِيرًا بَيْنَهُمْ، وهنا أَدْركتُ أن مَا أُشَاهِدُهُ ربّما يكون أحد أجزاءِ برنامجِ زِيَارَتِي وَإِقَامَتِي بِالْمَدِينَةِ.

لَقَدْ تَذَكَّرتُ الآن هَذِهِ اَلْحَدِيقَة اَلَّتِي كُنْتُ أَقابلُ فيها أَصْدِقَائِي قديماً، ونلعبُ سوياً، وَعلمتُ اَلْآنِ لِمَ شعرتُ بِكُلِّ هَذَا اَلْحَنِينِ عندما رأيتُها.

رَأَيْتُ نَفْسِي وَأَنَا أَلْعَبُ كُرَة اَلْقَدَمِ مَعَ أَصْدِقَائِي.

رَأَيْتُنِي أَقْفِز لِأُحَاوِل تَسْدِيدَ اَلْكُرَةِ بِرَأْسِي، وَبَعْدَمَا سَدَّدتُهَا سَقطتُ عَلَى قَدَمِي وَأُصبتُ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ حتى اَلنُّهُوض على قدمي من فرطِ الألمِ.

رَأَيْتُ أَصْدِقَائِي وَهُمْ مُلْتَفُّونَ حَوْلِي، وَأَنَا أُحَاوِلُ أَنْ أَقُولَ لَهُمْ إِنِّي بِخَيْرٍ بِلَا فَائِدَةٍ.

ثُمَّ أَتَى هَذَا اَلرَّجُل اَلْكَرِيم اَلَّذِي اِقْتَرَبَ مني، وَفَحْصَ قَدَمِي، ثُمَّ دُون أَنْ يَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ حَمَلَنِي عَلَى كَتِفِهِ، وَذَهَبَ إِلَى اَلْمُسْتَشْفَى، وَمن خَلْفِهِ أَصْدِقَائِي.

لَقَدْ فَحَصَنِي طَبِيبُ اَلْمُسْتَشْفَى، وَقَامَ بِتَجْبِيرِ قَدَمِي.

ثُمَّ حَمَلَنِي هَذَا اَلرَّجُل اَلْكَرِيم مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مَنْزِلِي حَيْثُ اِسْتَقْبَلَهُ وَالدي - رحمة الله عليه - وَأُخْتِي أَمَل.

كَانَت مَلَامِحُ اَلرَّجُلِ تَكَادُ تَخْتَفِي من ذَاكِرَتِي، وَلَكِنَّنِي اَلْآن أَتَذَكَّرُهَا جَيِّدًا.

إن مَا فَعَلَهُ هَذَا اَلرَّجُل فِي هَذَا اَلْيَوْم لَا يُنْسَى.

فَجْأَة اِخْتَفَى كُلُّ شَيْءٍ أمامي، حَتَّى اَلْحَدِيقَة نَفْسهَا . . .

عِنْدَهَا عرفتُ أنني رَأَيْتُ مَا يَجِبُ أَنْ أَرَاهُ،

فَنهضتُ من مَكَانِي، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى غُرْفَتِي.

-٢١-

العرض الثاني

مَضَى اَلْيَوم سَرِيعًا كَأَيَّامِ اَلْحَيَاة،

وَوَصَلَتْنِي فِي هَذَا اَلْيَوْمِ رِسَالَةً من إِدَارَةِ اَلْمَدِينَةِ تُخْبِرُنِي بِأَننِي يَجِبُ أَنْ أَسْتَمِرَّ فِي مُحَاوَلَةِ زِيَادَةِ مُؤَشِّرَاتِ اَلسَّعَادَةِ، وَتُحَفِّزَنِي أَنْ أَبْذُلَ مَجْهُودًا أَكْثَر، وَلَكِنَّ مَا شَد اِنْتِبَاهِي أنهُمْ أَخْبَرُونِي أن اِسْمَ منْ وَجّه لِي اَلدَّعْوَة سَوْفَ يُرْسِلُ إِلَى بَرِيدِي خِلَال يَوْمَيْنِ. ثُمَّ أَتَى مَوْعِد اَلْعَرْضِ اَلثَّانِي، فَجلستُ عَلَى اَلْأَرِيكَةِ مُنتظراً مَا سَيَتِمُّ عَرْضهُ.

ثُمَّ أَظْلَمَت اَلْغُرْفَةُ، وَبَدَأَ اَلْعَرْضُ.

رَأَيْتُ فِي بدايتِهِ وَجْه نَفْسِ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي رَأَيْتُهُ اَلْيَوْم وَهُوَ يُسَاعِدُنِي أَثْنَاءَ إِصَابَتِي وَأَنَا طِفْلٌ صَغِيرٌ، فَعلمتُ أن تَذْكِيرِي بِهَذَا اَلرَّجُلِ فِي اَلصَّبَاحِ هُوَ من أَجْلِ هَذَا اَلْعَرْض.

لَقَدْ كَانَ وَجْهُ هَذَا اَلرَّجُل اَلْكَرِيم هُوَ اَلَّذِي يَظْهَرُ عَلَى اَلشَّاشَةِ، وَقَدْ ظَهَرَ أَثَر مُرُورِ اَلسَّنَوَاتِ عَلَى مَلَامِحِهِ، وَكَانَ يَتَكَلَّمُ مَعَ اِبْنِهِ، كَانَ شَابٌّ صَغِيرٌ يَقِفُ أَمَامَهُ وَلَا يظهر وَجْهُهُ، وَقَدْ كَانَ يَقُولُ لَهُ:

- يَا بُنَي، لَيْسَ مُهِمًّا أَنْ تَتَعَثَّر، وَلَكِنَّ اَلْمُهِمَّ أَنْ تَعْرِف كَيْفَ تَنْهَض، وَتُكْمِلُ طَرِيقكَ... أَنَا أَعْلَمُ قُدُرَاتكَ، وَأَعْلَم أنكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَقِّقَ أَحْلَامَكَ، تَعَثُّرُكَ بِدِرَاسَتِكَ لَيْسَت نِهَايَة اَلْحُلْمِ بَلْ هُوَ اَلْبِدَايَةُ، فَيَجِبُ

أَنْ تَسْتَمِرَّ وَتَتَخَطَّى تِلْكَ اَلْعَقَبَة اَلْمُؤَقَّتَة، وَتُكْمِلَ طَرِيقكَ لِتُصْبِحَ أنت مُبَرْمِجاً للحاسبِ كَمَا تَتَمَنَّى.

تَنَهّدَ اَلشَّابُّ، وَقَالَ:

- أَنَا أَدْرُسُ اَلْآنُ بِجِوَارِ عَمَلِي، وَأُرِيدُ أَنْ أصبح مُبَرْمِجًا كَمَا تَمَنَّيْتُ طَوَال عُمْرِي، وَسَوْفَ أُحَقِّقُ هَذَا اَلْحلم لِأنهُ حلمي وَحلمكَ يَا أَبِي.

كَانَ مَشْهَدٌ لِلْإِرَادَةِ وَالتَّحَدّي، وَتَمَنَّيتُ بِالْفِعْلِ أَنْ يُحَقِّقَ هَذَا اَلشَّاب اَلطَّمُوح حلمه وَحلم أَبِيهِ . . .

عَانَقَ اَلْأَبُ اَلطَّيِّبُ اِبْنهُ، ثُمَّ سارا مَعًا في مواجهةِ الكاميرا،

وَهُنَا رَأَيْتُ وَجْه هَذَا اَلِابْن، وَكَانَتْ مُفَاجئة بِالنِّسْبَةِ لِي.

لَقَدْ كَانَ اِبْن هَذَا اَلْأَب اَلْكَرِيم هُوَ عَمَّار عَامِل اَلْخِدْمَةِ فِي مَقر عَمَلِي.

اِعْتدلت فِي جَلْسَتَي، وَقُلْتُ لِنَفْسِي وَأَنَا غَيْر مُصَدِّق لِمَا أَرَى:

- لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَقِيقِيًّا، هَلْ كُنْتُ أفْتعل اَلْمُشْكِلَات وَأُوَبِّخ اِبْن هَذَا اَلرَّجُلِ اَلْكَرِيمِ اَلَّذِي سَاعِدْنِي يَوْمًا؟ هَلْ كُنْتُ أهدم دُونَ أَنْ أَدْرِي طُمُوح هَذَا اَلشَّاب اَلَّذِي يُكَافِحُ من أَجْلِ مُسْتَقْبَلِهِ، وَمن أَجْلِ تَحْقِيقِ حُلْمِهِ وَحُلْم وَالِدِهِ. وَحَتَّى إِن كَانَ عَمَّار لَمْ يَكُنْ اِبْن ذَلِكَ اَلرَّجُل اَلْكَرِيم؛ لِمَاذَا كُنْت أُعَامِلُهُ بِهَذَا اَلشَّكْل؟ مَا اَلَّذِي كَانَ يَدْفَعُنِي لِهَذَا؟!! فكُلنَا مُتَشَابِهُونَ وَمُتَسَاوُونَ، فَكَيْفَ كُنْت أفتعل تِلْكَ اَلْمُشْكِلَات؟

ظَلَلْتُ أَلُوم نَفْسِي، وَأَنَا أَكْمل بَاقِي اَلْمَشَاهِد اَلْمَعْرُوضَة أَمَامِي.

ثُمَّ رَأَيْتُ عَمَّار وَهُوَ فِي أَحَدِ دُرُوسِهِ، وَيَبْدُو عَلَيْهِ اَلشُّرُود، وَمُعَلِّمهُ يَقُولُ لَهُ:

- لِمَاذَا لَمْ تعد مُهْتَمًّا بِدِرَاسَتِكَ كَمَا كُنْت يَا عَمَّار؟ لَقَدْ كُنْت أَفْضَل طَالِبٍ لَدَيّ فلِمَاذَا كُل هَذَا اَلشُّرُود وَهَذَا اَلْحُزْن؟

كَانَ عَمَّار صَامِتًا وَشَارِدًا، وَعِنْدَمَا سَمِعَ كَلَام مُعَلِّمِهِ سَقَطَت دُمُوعهُ، وَلَمْ يَتَفَوَّه بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

كَانَتْ دُمُوعُهُ تَسْقُطُ دَاخِلَ قَلْبِي، فَتَنْبُتُ أَلَماً كَبِيراً، فَأَنَا أَعْتَرِفُ أنني كُنْتُ أَحَدَ أَسْبَابِ هَذِهِ اَلْحَالَةِ اَلَّتِي يُعَانِي منهَا عَمَّار.

ظَهَرَت مَشَاهِد لِعَمَّار وَهُوَ يَمْشِي مُنَكَّس اَلرَّأْسِ، وَوَالِدهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهُوَ حَزِينٌ عَلَى حَالِ اِبْنِهِ.

وَفَجْأَة أَظْلَمَت اَلشَّاشَةُ أَمَامِي،

وَبعدهَا ظهرَ ضَوْء خَافِت، وَرَأَيْتُ عَمَّار وَقَدْ أَحَاطَتْهُ أَلْوَاحٌ زُجَاجِيَّةٌ شَفَّافَةٌ من جَمِيعِ اَلْجِهَاتِ، وَهُوَ يَسْقُطُ مُسْتَسْلِمًا إِلَى قَاعٍ محيطٍ من اَلظَّلَامِ.

وَظَهَرَتْ بضعُ كلماتٍ عَلَى اَلشَّاشَةِ تقولُ:

- لَقَدْ سَقَطَ عَمَّار فِي ظَلَامِ اَلْقُنُوطِ.

وَانْتَهَى اَلْعَرْضُ.

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَكَلَّم حَتَّى مَعَ نَفْسِي بَعْد اِنْتِهَاءِ اَلْعَرْضِ.

لقد كَانَ كُل مَا يَدُورُ بِدَاخِلِي هُوَ رَغْبَةٌ عَارِمَةٌ بِالْعَوْدَةِ لِمُسَاعَدَةِ عَمَّار عَلَى اَلْخُرُوجِ من هَذَا اَلْيَأْسِ، وَهَذَا اَلظَّلَام.

إن كُلَّ إِنْسَانٍ يَسْتَحِقُّ فُرْصَةً ثَانِيَةً لِلْعَيْشِ بِأَمَلٍ وَتَفَاؤُلٍ.
فُرْصَة ثَانِيَة لِاسْتِعَادَةِ حَيَاتِهِ وَأَحْلَامِهِ اَلَّتِي هَوَتْ أَمَامَهُ.
كُلُّ إِنْسَانٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَمَلٍ، وَإِلي شَخْصٍ يُحِبُّهُ، وَيُقَدِّرَهُ، وَيَعْمَل عَلَى إِسْعَادِهِ، وَيُنِير تِلْكَ اَلشَّمْعَة اَلَّتِي اِنْطَفَأَتْ دَاخِلِهِ.
وَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَكُونَ أَنَا هَذَا اَلشَّخْص بِالنِّسْبَةِ لِعَمَّار.

-٢٢-

الهدايا

اِستيقظتُ من نَوْمِي نَشِيطًا فِي اَلصَّبَاحِ اَلتَّالِي،
وَرَغْمُ ضِيقِي بِكُلِّ مَا أَرَى في العروضِ اليوميّةِ، فَقَدْ نَوَيْتُ أَنْ أُكَثِّفَ عَمَلِي، حَتَّى أستعيد حَيَاتِي اَلسَّابِقَة سَرِيعًا.
وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَى مَيْدَانِ اَلْأُمْنِيَاتِ،
تَوقَّفتُ لِلتَّسَوُّقِ،
وقَدْ اشتريتُ اَلْكَثِير من اَلشُّوكُولَاتَةِ، وَمن اَلْكُتُبِ وَالرِّوَايَاتِ اَلَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ اَلسَّعَادَةِ.
وَعِنْدَمَا وَصلتُ لِهَذَا اَلْمَيْدَان اَلْمُزْدَحِم، قُمْتُ بِتَوْزِيعِ هَذِهِ اَلْهَدَايَا عَلَى كُل منْ قَابلته من الناسِ،
وَكَانَت تَجْرِبَةٌ رَائِعَةٌ لِنَشْرِ اَلسَّعَادَةِ،

فَكُلٌّ منْ قَابَلْتُهُ، وَأَعْطَيْتُهُ من اَلْهَدَايَا قَدْ قبلهَا سَعِيدًا، وَأَهْدَانِي اِبْتِسَامَتهُ وَشُكْرهُ . . .

رَأَيْتُ اَلسَّعَادَة تَنْتَشِرُ فِي اَلْمَكَانِ اَلَّذِي تَحَرَّكَتْ فِيهِ،

فَرَغْم اِمْتِلَاكِهِم اَلْمَال، فَأن اَللَّمَسَات اَلْجَمِيلَة، وَالْهَدَايَا اَلْمُخْتَارَة بِعِنَايَةٍ تُؤَدِّي بِالْفِعْلِ إِلَى نَشْرِ اَلسَّعَادَةِ بَيْنَ اَلنَّاسِ.

وَأدْرَكْتُ أن تكْرَارَ اَللَّمَسَاتِ اَلْجَمِيلَةِ، وَأَفْعَال اَلْخَيْرِ مَعَ اَلنَّاسِ سَوْفَ تُؤَدِّي إِلَى سَعَادَتِكَ أَنْتَ أَيْضا مَعَهُمْ، والدليل أنّني عِنْدَمَا نَظرتُ إِلَى سَاعَةِ يَدِي تَبَيَّنتُ اِرْتِفَاع مُؤَشِّرِ اَلرِّضَا وَبَاقِي مُؤَشِّرَاتِ اَلسَّعَادَةِ.

وَأنا في الميدانِ، قَابلتُ نِدَاء فِي نَفْسِ اَلْمَكَانِ الذي كانت تجلسُ فيه سابقًا، وَأعْطِيَتُهَا بَعْضَ قِطَعِ اَلشُّوكُولَاتَةِ، وَرِوَايَةٍ عَن اَلسَّعَادَةِ، فَشَكَرْتَنِي وَأشَارَتْ إِلَى سَاعَتِهَا فَقَدْ كَانَ مُؤَشِّرُ اَلرِّضَا بِهَا قَدْ قَارَبَ اَلْ (٦٠٪).

وكم أسعدني هذا.

قضيتُ اَلْيَوْمَ في ميدانِ الأمنيات، ثم عدتُ إِلَى غُرْفَتَي لِأُطَالِعَ رَسَائِلِي.

ثم انتظرتُ عَرْضَ اَلْيَوْمِ، وَأَنَا دَاخِلِي خَوْفٌ غَرِيبٌ لَمْ أَشْعُر بِهِ من قَبْل.

وَجَاءَ مُسَاعِدِي الشخصيّ لِيُعْلِنَ بَدْء اَلْعَرْضِ،

وَكالعادةِ،

أظْلَمَت اَلْغُرْفَةُ من جَدِيدٍ.

-٢٣-

أمل

بَدَأَ اَلْعَرْضُ بِمَشْهَدٍ لِي وَأَنَا طِفْلٌ فِي عَامي اَلْأَوَّل،
كُنْتُ أَبْكِي وَحِيدًا، ثُمَّ ظَهَرَتْ أَمل أُخْتِي اَلْكَبِيرَة، وَهِيَ تَأْتِي مُسْرِعَة لِتُعَانقنِي، وَتَحملنِي بَيْنَ يَدَيْهَا.
كَانَتْ أَمل أَكْبَر منّي بِتِسْعِ سِنِين،
كَانَتْ تُلَاعِبُنِي وَتُحِبُّنِي،
ثم بَدأت تَتَغَيَّرُ اَلْمَشَاهِدُ أَمَامِي،
فَهَا هِيَ أَمل تُسَاعِدُنِي عَلَى أَنْ أَخْطُوَ خُطُوَاتِي اَلْأُولَى، وَهَا هِيَ تُطْعِمُنِي، وَهَا هِيَ تَأْخُذُنِي فِي أَحْضَانِهَا حَتَّى أَنَام، ثُمَّ تَضَعُنِي بِرِفْقٍ عَلَى فِرَاشِي.
وَمَرَّت اَلْأَيَّامُ وَالسَّنَوَاتُ، وتَزَوَّجَت أَمل بَعْدَ أَنْ أَخَّرت زَوَاجَهَا كَثِيرًا بِسَبَبِي بَعْد وَفَاةِ أَبِينَا.
لَقَدْ تَزَوَّجَتْ من (جمال) ذَلِكَ اَلشَّاب اَلطَّيِّب اَلَّذِي ساعدني كثيرًا بحياتِي كأنّه أخي.
لَقَدْ كَانَتْ أَمَل تَتَحَدَّثُ مَعَ جمال بِشَأْنِي، وَقَالَتْ مُتَمَنِّيَة أَن يُوَافِقَ عَلَى طَلَبِهَا:

- إن يُوسُف قَدْ أَنْهَى دِرَاسَتَهُ، وَلَقَدْ آنَ اَلْأَوَان لِنَتْرُكَ هَذَا اَلْمَنْزِل لَهُ، وَيَكُون لَنَا مَنْزِلنَا اَلْخَاصّ بِنَا، حَتَّى يَتَسَنَّى لَهُ اَلزَّوَاج بيسرٍ، وَلَا نَكُونُ نَحْنُ عَقَبَة أَمَامَهُ.

اِبْتَسَمَ جَمَال بِحَنَانٍ، وَقَالَ:

- لَقَدْ أَتَت تِلْكَ اَلْفِكْرَة نفسها إِلَى عَقْلِي أَيْضًا، وَلَكِنِّي خَشِيت أَنْ أَحَدِّثَكِ عَنْهَا، فَأَنَا أَعْلَمُ كَمْ تُحِبِّينَ يوسف.

ثُمَّ تَنَهَّدَ، وَقَالَ:

- هُنَاكَ فُرْصَةٌ لَنَا لِلِانْتِقَالِ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ تتبعُ عَمَلِي، ولا يوجد من الزملاءِ مَن يريدُها، رغم أنّها تَرْقِيَةٌ وَظِيفِيَّةٌ أَيْضًا، أَنَا لا أعلمُ شيئًا عن المدينةِ، ولكن يكفِيني أن تكونِي معي، فهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَخُوض هَذِهِ اَلتَّجْرِبَة مَعًا؟

أجابته أمل بِامْتِنَانٍ:

- أَنْتَ إِنْسَانٌ عَظِيمٌ يَا جَمَالٌ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَنْتَقِلَ إِلَى اَلْمَدِينَةِ اَلْجَدِيدَةِ وقتما تشاءُ، وَسَنَظَلُّ مَعًا دَائِمًا بِإِذْنِ اَللَّهِ... رغم أنّي سَأَشْتَاقُ كَثِيرًا إِلَى يُوسف، وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أن هَذَا هُوَ اَلْأَفْضَلُ لَهُ، إنني لَسْتُ فَقَطْ أُخْتهُ بَلْ بِمَثَابَةِ أُمِّهِ أَيْضًا، وَمَا عَلَى اَلْأُمِّ إِلَّا أَنْ تُضَحِّي من أَجْلِ أَبْنَائِهَا وَهِيَ سَعِيدَةٌ، وَأَتَمَنَّى أَنْ يُدْرِكَ يُوسف هَذَا يَوْمًا مَا.

رَبَّت جَمَال عَلَى كَتِفِهَا مُطْمئنا إِيَّاهَا، وَقَالَ:

- إنهُ أَيْضًا أَخِي اَلْأَصْغَر، وَنَحْنُ لَنْ نَتْرُكَهُ، وَسَنَكُونُ بِجِوَارِهِ دَائِمًا، وَمن اَلْمُؤَكَّدِ أنهُ سَيَفْهَمُ لِمَاذَا نُغَادِر اَلْمَنْزِل اَلْآنَ.

اِسْتَوْقَفَنِي هَذَا اَلْمَشْهَد، فَلَمْ أكنْ أدْركُ حِينهَا مَا سِر تَرْكِهِمَا اَلْمَنْزِل فِي هَذَا اَلْوَقْتِ؟!!

لَقَدْ ظَنَنْتُ أنهَا تَعِبَتْ من اَلْعِنَايَةِ بِي، أَو أن زَوْجَهَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا مَنْزِلهِمَا اَلْخَاصِّ اَلَّذِي يُمكّنهُمَا من اَلْعَيْشِ بِحُرِّيَّةٍ وَرَاحَةٍ. لَقَدْ اِعْتقدتُ لِوَهْلَةٍ أنهَا تَخَلَّتْ عَنِّي . . .

لَقَدْ ظَنَنْتُ اَلْكَثِير من اَلظُّنُونِ، وَرَاوَدَنِي اَلْكَثِير من اَلْأَفْكَارِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ كُل هَذَا اَلْحُب منهُمَا، وَكُل هَذِهِ اَلتَّضْحِيَةِ. لَقَدْ كَانَ يَجِب أَيْضًا أَلَّا أَظُن بِأُخْتِي وَزَوْجهَا إِلَّا اَلْخَيْر، لِأَنِّي مَا رَأَيْتُ منهُمَا إِلَّا اَلْخَيْر.

عَلَى اَلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُل حَدَثٍ من كُلِّ وجهاتِ اَلنَّظَرِ، وَمن كُلِّ اَلْأَبْعَادِ اَلْمُمْكِنَةِ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ أن يَسْتَوْعِبَهُ، وَحَتَّى لَا يَظْلِمُ أَحَدًا.

دَائِمًا يَجِب أَن نَظُنَّ أن اَلنَّوَايَا اَلْحَسَنَةَ هِيَ اَلْأَقْرَب وَخَاصَّة مِمَّن هُم أَقْرَب اَلنَّاسِ منا، إِلَى أَنْ يَتَّضِحَ اَلْعَكْس.

لَقَدْ عَانَقَتْنِي أَمل وَعَانَقَنِي جمال قبل رَحِيلِهِمَا، وَلَمْ يَتْرُكَا أَي مُنَاسَبَةٍ إِلَّا وَكَانَا مَعِي.

كَانَا يَسْأَلَانِ عَنِّي وَيُتَابِعَان أَخْبَارِي دَائِمًا.

تَغَير اَلْمَشْهَد أَمَامِي، وَظَهَرَ فِيهِ جمال وَهُوَ يَرْقُدُ مَرِيضًا فِي فِرَاشِهِ، وَأَمل جالسة تَبْكِي بِجِوَارِهِ . . .

وَأدْرَكْتُ أن اَلْمَشْهَدَ اَلتَّالِيَ هُوَ مَشْهَدُ اِتِّصَالِهَا بِي.

وَبِالْفِعْلِ كَانَ هُوَ اَلْمَشْهَد اَلتَّالِي،

وَرَأَيْتُ رَدِّي اَلْجَافَّ عَلَيْهَا اَلَّذِي لَا يَلِيقُ بِي، وَلَا بِمَكَانَتِهَا عِنْدِي،

وَاندهشتُ عندما رأيتُها وهيَ تَقُولُ لِجمال بابتسامةٍ واسعةٍ:

- كَمَا قُلْتُ لَكَ، لَقَدْ حزن يُوسُف جِدًّا لِمَرَضِكَ، ولقد أخبرني أنّهُ سَيُسَاعِدُنَا، وَسَيَأْتِي إِلَيْكَ بِأَقْرَب فُرْصَةٍ، كُلُّ مَا عَلَيْكَ فعله هو أَن تُقَاوِمَ هذا اَلْمَرَض وَلَا تقلق.

ثُمَّ أُختتم اَلْعَرْض بِمَشْهَدِ أَمل وَ هِيَ تُصَلِّي، وَتَبْكِي، وَتَرْفَعَ يَديهَا إِلَى اَلسَّمَاءِ قَائِلَةً:

- اَللَّهُمَّ أنِر بَصِيرَة أَخِي، أنهُ أَخِي اَلْوَحِيد وَأعلمُ أنهُ يُحِبُّنِي. أن اَلْأَزَمَات تُظْهِرُ مَعَادِنَ اَلنَّاسِ، وَأنا على يقينٍ بأن أَخِي مَعدنهُ من ذهب، فَاَللَّهُمَّ سَاعدهُ، وَأَعَنهُ، وَيسّر لَهُ طَريقه . . .

ثُمَّ ظَلَّت تَدْعُو اَللَّهَ أَنْ يُفْرِجَ كَرْبهَا، وَيَشْفِي زَوْجهَا.

وَانْتَهَى اَلْعَرْضُ.

-٢٤-

السقوط

بكيْتُ كثيرًا بَعْد اِنتِهاء هذَا العرْض.

كان مُؤشِّر الرِّضَا يَتَنَاقَص أَمامِي بِسرْعة،

ولكن لَم أَستَطع أن أَتوَقف عن اَلبُكاء أو الشُّعور بِالذَّنْب على مَا حدث.

كُنْت أسأَل نَفسِي عن سِرّ مُعاملتي لَهَا بِكلِّ هذَا اَلبُرود رَغْم أنهَا لَم تُقصّر أبدًا فِي رِعايَتِي، وَكُنت أَلُوم نَفسِي أيْضًا على سُوء ظَنِّي بِهَا، وَهِي اَلتِي

كَانَت تَعمَل من أَجْل مَصْلَحتي، وَمن أَجْل مُسْتقْبلي، وكانتْ تُضحِّي من أَجلِي.

ولأوَّل مَرَّة، ظَهر مُؤشِّر الرِّضَا على حَائِطٍ كَامِلٍ من اَلغُرفة أَمامِي، وَهُو مَا زال يَتَناقَص وقد تَحوَّل إلى اللَّوْن الأحْمر.

أَمَّا أنَا،

فقد كُنْت سارحًا فِي تساؤلاتي عن كَيفِية إِصلَاح مَا أَفسَدت.

أضاءتْ اَلغُرفة كُلهَا بِالضَّوْء الأحْمر،

والْمؤشِّر يُوَاصِل الانْخفاض والْهبوط نَحْو الصِّفْر، ومَا زِلْتُ لَا أَستطِيع أن أَتَمالَك نَفسِي.

لَم أَعُد أَستطِيع الشُّعور بِشَيء حَولِي، ولم أَعُد أُفكِّر إِلَّا فِي هذَا الذَّنْب اَلذِي اِقْترفته.

كَانَت مَشاعِر الغضب والْيَأْس والْإِحْباط تُسيْطِر على كَامِل تفْكيري، ولم أَعُد حَتَّى أَستطِيع المقاومة أو أن أصل إلى نُقطَة أمل أو بريق ضَوْء فِي هذَا الظَّلَام اَلذِي بدأ يُحيط بِي.

وَفجْأَة وصل مُؤشِّر الرِّضَا إِلى الصِّفْر،

وأظلمت الدنيا من حَولِي،

ولم أَعُد أَشعُر بِأيِّ شَيْء.

-٢٥-

ظلام القنوط

نظرْتُ حَولِي لِأَجد نَفسِي فِي ظَلَامٍ قَاتِم،

كَانَت تُحيط بِي أَلوَاح زُجاجِيَّة من كُلِّ الجهَات، كَأنه صُنْدُوق أعدَّ خِصّيصًا لِيحيط بِي.

كان الصُّنْدوق فِي قاع منطَقة مُظْلِمة تُشْبِه قاع البحْر، ورغْم أَننِي كُنْت أَتنَفس بِداخل الصُّنْدوق إِلَّا أنه كان هُنَاك شَيْء مَا يُثْقِل قَلبِي وَروحِي.

كان بِجواري آلاف الصَّناديق اَلتِي بِداخلهَا أَشخَاص من مُخْتَلِف الجنْسيَّات سقطوا مثلي فِي منطَقة ظَلَام اَلقُنوط،

وفِي كُلِّ دَقِيقَة تسقط العَشَرات من الصَّناديق الجديدة بِأشْخَاص إِلى أَعمَاق ظَلَام اَلقُنوط أيْضًا، ولم أَعُد أَعرِف إِن كان هُبوطهم لِهَذا الظَّلَام ناتجًا عن ضغُوط الحيَاة، أم كَانُوا زُوَّارًا بِالْمدينة وهالَهم مَا رأوه من أفْعالهم.

إن بَعْض الأشْخاص لَا يسْتطيعون أن يتحمَّلوا ضغُوط الحيَاة لِفتْرة طَوِيلَة وقد ينْهارون فِي أيِّ وَقْت، وَهنَا يَجِد الشَّخْص أنه قد اِسْتسْلم لِلْيأْس والْإحْباط بَعْد أن نَفَذ مَخزُون إِرادَته، أو أَنهَا اِنْهارت بِكاملهَا تَحت ضَرَبات تِلْك الضُّغوط،

وهنا يجِد الشَّخْص نَفسَه فِي هُوَّة عَمِيقَة يَغرَق فِيهَا بِكلِّ كيانه، ولَا يَستطِيع النُّهوض منهَا أو إنقَاذ نَفسِه،

وَفي تلك اللحظة يكون في أشدِّ الحاجةِ إلى المساعدةِ مِمَّن حوْله، وَخَاصَّة من أَقرَب النَّاس إلَيه...

نَظرتُ بعيدًا،

وَإذَا بِي أَجد عَمَّار فِي أحد الصَّناديق البعيدة...

تمنَّيْتُ كثيرًا خُروجي من هذَا الظَّلَام، ومساعدة كُلِّ هؤلاء الأشْخاص وأوَّلهم عَمَّار.

أريد أن أصْلِح مَا فَعلت، وأغيِّر من نَفسِي، وَمن طَرِيقَة تعاملي مع اَلجمِيع.

أنَا أَعلم جيِّدًا أن الماضي لَن يَعُود، وَلَكنَّه قد أعْطاني دُروسًا تَعلمت منهَا اَلكثِير، وَأعلم أننِي أَستطِيع أن أُغيِّر حَاضرِي إلى مَا أَتمَنى فيتغَيَّر تِلْقائيًّا المسْتقْبل إلى الأفْضل.

أنَا أَعلم أَننَا يَجِب أن نُحسن اَلظَّن بِالنَّاس إلى أن يَثبُت العكْس، وأن نُحسن التَّعامل مَعهُم فِي كُلِّ الأحْوال، وأن تَكُون تعاملاتنا مُعَبّرة عن أخْلاقنا نَحْن وليْس أَخلَاق من نُعَامِل، وأن نُعاملهم بِالْحسْنى دائمًا.

يَنبَغِي أن نُشَارِك سعادتنَا، وأن نُعْطِي من وقْتنَا مَا نَستطِيع لِإسْعَاد من حوْلنَا،

وينْبَغي أن نَحيَا دائمًا بِحبِّ الخيْر لِلْجمِيع.

لَقد تَعلمَت هُنَا فِي مَدِينَة السَّعادة اَلكثِير، وأعْلم أَننِي أَستطِيع أن أَنجَح فِي تَرمِيم مَا كَسرت، وإصْلَاح مَا أَفسدت.

وَلكِن كَيْف يُمْكِن هذَا، وَأنَا حَتَّى لَا أَستطِيع أن أَنقَذ نَفسِي من هذَا المكَان؟!!

نظرتُ إلى الأعلى، ودعوتُ اَللَّه - سُبْحانه وَتَعالَى - قائلًا:

- اللَّهمَّ أَنْت تَعلم مَا فِي قَلبِي فأخْرجني من ظُلمتي إلى نُورك، وأعدني إلى حَياتِي، وأصْلح لِي نَفسِي وَحالِي.

لم أَكد أنتهى من دُعائي حَتَّى ظَهرَت فِي الأعْلى فُقَّاعة دَائرِية مُضيئَة، وكانت شِدَّة ضوْئهَا تَزْداد مع اِقْترابهَا منّي.

ظَلَّت تَقتربِ حَتَّى وَصلت إلى مَكانِي، ولكنِّي لَم أَستَطع أن انظر إلِيْهَا أو إلى مَن فِي دَاخلِها من شِدَّة سُطُوع الضَّوْء، ولكنِّي اِسْتطَعْتُ أن أَلمَح ظِلًّا لِشَخصٍ وَاحِد أَظن أَنِّي أَعرِفه.

ومَا أن وَصلَت الفقَّاعة إلى مَكانِي حَتَّى اِختفَى الثِّقل اَلذِي كُنْت أَشعُر بِه. ثُمَّ فَقدَت إِحْساسي بِكلِّ شَيْء.

-٢٦-

العودة للمدينة

سمعت صَوت مريم وَكَأنه يَصدُر من دَاخِل تِلْك الفقَّاعة، وَيقُول بِقوَّة:

- أَنْت أَقوَى من أن تَسقُط فِي ظَلَام اَلقُنوط، هَيَّا قَاوم، وعد إِلى حَياتِك ولَا تَسقُط مَرَّة أُخرَى.

اِسْتفَقْتُ مُنْدهِشًا فَإِذَا أنَا على سَريرِي فِي غُرفَتَي، وسألتُ نَفسِي:

- هل كان هذَا كَابُوسا؟

فَإِذَا بِمساعدي اَلآلِي يَأتِي إلى جوارِ سريري، وَيقُول:

- أهْلا بِعوْدَتك من ظَلَام اَلقُنوط، لَقد كَانَت عودتك سَرِيعَة جِدًّا.

فَأَدركت أن سُقوطي فِي ظَلَام اَلقُنوط كان حَقِيقَة.

جلستُ، وسألتُ مُسَاعدِي:

- وَمن أنْقذَني منه؟

قال سريعًا:

- إن من وَجّه لَك الدَّعْوة هُو من أنقذك، وَلَكنَّه اِسْتجَاب سريعًا رَغْم أن هذَا سَيحرِمه من تَوجِيه أيِّ دَعوَة زيارة لِأيِّ شَخْص آخر.

قُلْت، وَأنَا لَا زِلْتُ مُنْشغِلا بِهويَّة الشَّخْص اَلذِي دعاني للمدينةِ:

- هل يُمْكِن أن تُخْبرَني بِاسْم مَن دعاني لتلك الرحلة؟

قال المساعد اَلآلِي:

- من الأفضل أن تنظُر إلى رَسائِلك، فرُبمَا تَجِد إجابة مَا تَسأَل عَنْه هُنَاك.

قُمْت بِلهْفة مُتوجِّهًا إلى مَكتَبِي لِأتفَقَّد رَسائِلي،

ووجدت بُغْيتي فِي رِسالة من إدارة المدينة كان مُحْتواهَا:

"مرحبا بِعوْدتك سالمًا يَا يوسف، لَقد عاد مُؤشِّر الرِّضَا لَديْك إلى ٢٠ ٪ مَرَّة أُخرَى. لَقد أنْقذْتُك من دعتك إلى المدينةِ، إنهَا مَريَم، ننْصحك بِأن تُفكِّر بِطريقة إيجابيَّة فِي كُلِّ مَا تَمر بِه هنا، وأن تَتَجنَّب السُّقوط فِي ظَلَام اَلفُنوط مَرَّة أُخرَى، لِأن مَوجّه الدَّعْوة لَا يَستطِيع إنْقاذك سِوى مَرَّة وَاحِدة، وَاعلم أن سقُوطك مَرَّة أُخرَى قد يَكُون هُو السُّقوط اَلأخِير اَلذِي لَا عَودَة منه، فحافظ على مُؤشِّراتك، وحاول أن تَعمَل على اِرْتفاعهَا وزيادتهَا بِاسْتمْرار. نَتَمنَّى لَك إقامة سَعِيدَة بِمدينة السَّعادة هابينيسيا"

أنهيتُ قراءةَ الرسالةِ ثم أَخذتُ نفسًا عميقًا،

لَقد شَعرت مُنْذ البداية أن مريم هِي من وَجهَت الدَّعوة، ولكنِّي كُنْت أُريد أن أَتأَكد من هذَا، كُنْت أَتمَنى أن أُوجِّه لَهَا الشُّكْر على هَذِه الدَّعْوة اَلتِي غَيرتْنِي بِالْفِعْل، وَعلَى إنْقاذي من هذا الظلامِ أيْضًا.

كَانَت إرادَتي تَزْداد من أَجْل العمل سريعًا على اَلْعَودةِ لِحياتي الطَّبيعيَّة مَرَّة أُخرَى وبأقْرب وَقْت، ومحاولة تغْييرهَا إلى الأفْضل.

نهضتُ من مَكانِي عازمًا على العمل على زِيادة مُؤشِّر الرِّضَا بِكلِّ طَرِيقَة،

وبأسرعِ وقت.

-٢٧-

جولة جديدة

فِي هذَا اليوْم الذي عدت فيه من الظلامِ إلى النورِ،
خَرجت إِلى الشَّارع بِشعور جديد، وكأَنِّي عُدْت إِلى الحيَاة بَعد فراق.
كان الأمل فِي عَودَتِي لِحياتي سريعًا هُو مَا يُحَركنِي، وقد أَثمَر هذَا حماسًا وشغفًا على العمل.
قُمت بِشراء اَلكثِير من قطع الشُّوكولاتة، والْكتب، والْورود مُختلفَة الألْوان والْمغلَّفة بِأناقة.
ذَهبت إِلى عِدَّة مَيادِين وحدائق بِالْمدينة، وَقُمت بِتوْزِيع مَا مَعِي من هدايَا بَسِيطَة أَسعَدت اَلجمِيع وأسْعدتني.
كَانَت خُطواتي تَزْداد سُرعَة كُلمَا أُعطِيت شخْصًا إِحْدى الهدايَا، وكُنْت أَشعُر أن زِيادة سُرْعتي واتِّسَاع خُطواتي يَحدُث من فَرْط سعادَتي.
والْمفاجأة كَانَت عِنْدمَا لَم يَرفُض أيُّ أحد الهدايَا اَلتِي أُعْطيتهَا لَه،
كمَا أَننِي قد أَرفَقت هَديَّة أخرَى لَا تُبَاع ولَا تُشتَرَى ولَا يُمْكِن لِأَحد أن يَرفُضها وَهِي اِبْتسامة وِدٍّ وَسَعادةٍ وَاسِعة لِكل من قابلت،

وَكَان اَلجمِيع يبْتسمون أيْضًا فِي وِدٍّ وامْتنان.

ذَهبت إِلى مَيْدَان الأمْنيات،

وجلستُ مع عدد من الأشْخاص مُسْتمِعًا لِهمومهم ومشاكلهم، ومحاولا مُساعدتهم على تخطِّي مَصاعِب الحيَاة فِي مَدِينَة السَّعادة.

كُنْت أَشرَح لَهُم كَيفِية الحيَاة فِي المدينةِ، وكيْف يُمْكِن لِهَذه الحيَاة أن تُساعدهم فِي التَّغْيير اَلذِي يُنْشدون.

حاولتُ أن أنْصحَهم بِتقبُّل أفْعالهم السَّابقة مَهمَا كَانَت صَعبَة، وأن يتعلَّموا منهَا، وأن يتقبَّلوا أنفُسهم، ويعْملون على تغييرها إِلى الأفْضل لِيحيوا سُعَداء.

قابلتُ هذَا الشَّابّ اَلصغِير اَلذِي لَم يَبلُغ من اَلعُمر عِشْرين عامًا بَعْد.

لَقد تَعجبت أوَّلا من وُجوده رَغْم صِغَره فِي مَدِينَة السَّعادة!

وقد جَلست معه قليلا نَتَبادَل أَطرَاف اَلحدِيث، وَأعجبت كثيرًا بِحكْمَته وبكلامه، وَلقَد أخْبرَني بِخلاصة تجْربَته حِين قال لِي شارحًا تجربته:

- لَقد كُنْت أسأَم سريعًا من كُلِّ شَيْء، ولَا يُثير اِهْتمامي أيَّ شَيء، وكُنْت لَا أَستطِيع أن أدرك قِيمة الأشخاصِ، أو النعم التي كانت تغمر حياتي، فقد كَانَت حَياتِي مُرَكزة فقط حَوْل نَفسِي وأنانيتي... كَانَت أُمِّي تُحَاوِل أن تُصْلحني وترْشدني بِلَا فَائِدة، ولقد حاولت مَعِي كثيرًا، ولكنِّي كُنْت أَزداد أَنانِية وَحَماقَة، إنني أودُّ أن أَشكُرها على أنها فَكرت فِي أن توجَّه الدَّعْوة لِي لِلْإقامة وللتَّعلُّم فِي مَدِينَة

السَّعادة... لَقد رأيْتُ هنا المسْتقْبل ضِمْن البرْنامج اَلذِي تمَّ إِعْداده لِي، وَهذَا المسْتقْبل سوف يتحقق لَا مَحالَة، وسيكون هذَا عاجلًا أم آجلًا... لَقد رأيْتُ مُحاكَاةً لِيَوم وفاةِ أُمِّي، وَهِي أهمُّ شَخْص فِي حَياتِي، وَهنَا سَألَت نَفسِي: هل أنَا اِسْتعْددتُ لِهَذا اليوْم؟ هل شبعت حُبًّا وحنانًا من أُمِّي؟ هل أسْعدتها؟ هل أضحكْتهَا وساعدتْهَا على أن تحيا الحيَاة السعيدة التي تستحقها؟ هل هِي رَاضِية عَنِّي وعن أخْلاقي؟ هل شَعرت بِأنهَا أَحسَنت ترْبيَتي؟ لَقد علمت أن أُمِّي لَن تَبقَى مَعِي لِلْأبد، وَكَان هذَا خاطرًا لَم يُراودني من قبل، وفكَّرتُ وأدركتُ أَنني يَجِب أن أستغل كُل لَحظَة مَعهَا لِإسعادهَا، إن سعادَتي وسعادتهَا مُرتبطَة، وَهِي جُزْء من سَعادَة من نَحبهِم... لَقد عَلمَت أن وُجُود أُمِّي بِجانِبي هُو لُبُّ السَّعادة وَأصلها، وَلقَد هَزنِي مَشهَد مُحاكَاة وَفاتِها بِصورة كَبِيرَة بِحَيث أَصبَحت كُلُّ أُمْنياتي ودعواتي الآن تَتَركَّز فِي أن أَعُود إِلَيْهَا، وَأظَل بِجوارهَا، وأرْضيهَا، وأن أَتغَير إِلى الأفْضل، وَإِلَى الأبد.

وَلقَد قابلت أَيْضًا ذَلِك الرَّجل الطَّيِّب اَلذِي كان يَبدُو فِي العقْد السَّادس من اَلعُمر، وَلقَد أَثَار وُجوده دَهشَتِي أَيْضًا . . .

لَقد أَخْبرَني هذَا الرَّجل أن اِبْنه هُو من وَجّه لَه الدَّعْوة لِلْإقامة فِي مَدِينَة السَّعادة . . .

كُنْت أُحَاوِل أن أُخْفِي علامَات الدَّهْشة اَلتِي تُغالبني لِتَرْتَسم على وَجهِي، وَلقَد فَطِن الرَّجل لِدهْشَتي فابْتَسم وَقَال:

- لَا تَتَعجَّب من أن عُمْرِي قد اِقتَرَب من نِهاية عَقدِه السَّادس، وَأنني أتيْتُ بِدعوة إِلى مَدِينَة السَّعادة... إن الإنْسان اَلذكِي هُو من يَقضِي عُمره كُلّه يَتَعلَّم، ويتحَسَّن، ويتْرك أثرًا، وهناك اَلكثِير من النَّاس يُحاولون التَّعَلُّم فِي مَدْرَسة الحيَاة، وَلكِن البعْض فقط هُم من يَصلُون إِلى أهْدافهم من هذَا التَّعَلُّم، وهناك الكثيرون يفْشلون فِي اَلوُصول أو التعلم.

ثُمَّ أَردَف قائلًا عن تجربته:

- لَقد كُنْت دائمًا أحاول أن أرضي جميع النَّاس، وَهِي غَايَة لَا يُمْكِن إِدْراكهَا مَهمَا حاولتْ... كَانَت محاولاتي تَأخُذ اَلكثِير من جُهْدِي وَوقتِي، وَفِي أَغلَب الأوْقات كان كُلُّ مَا أَقُوم بِه يَذهب سُدى بِلَا تَقدِير من أحد، حَتَّى أثّر ذَلِك على علاقَتي بِابْني اَلوحِيد، وزوْجَتي، وَأثّر علَى روحي، وَنفسِي... لَقد اِسْتنْزفت هَذِه الطَّريقة طَاقَتِي ومشاعري، وَلقَد فَقدت الأمل فِي أن أُرضِي أحدًا من النَّاس أيْضًا، وفقدت الأمل أن أحيَا سعيدًا بَعْد تَكْرار الصَّدمات منهم، حَتَّى أنني قد هويت فِي ظَلَام اَلقُنوط. لَقد حَاوَل اِبْنِي مَعِي كثيرًا، وساعدني حَتَّى نَهضت وخرجت من هذَا الظَّلَام بِصعوبة، لَكنِّي كُنْت مَا زِلْتُ لَا أَستطِيع مُسَاعدَة نَفسِي، أو التَّعامل مع النَّاس،

فأهْداني اِبْنِي هَذِه الدَّعْوة إِلى مَدِينَة السَّعادة... أَدركت أن تَعلُّم فنّ الحيَاة السَّعيدة يُمْكِن أن يُفيد كُل من يتعلَّمه سَوَاء كان كبيرًا، أو صغيرًا، وَيمكن أن يحدث فِي أيّ وَقْت، وأدْركتُ أن إِتقَان فنّ وُجُود المسافات فِي العلاقات بَيْن النَّاس هُو مُهِم لِلْغاية، عَلمت أَننِي لَا يَجِب أن أقتربُ من النَّاس حدَّ الاحتراق، ولَا أَبتَعد عَنهُم حد اَلبُرود، لِأن فِي الاقْتراب اَلشدِيد قد ترى تَفاصِيل دَقِيقَة كان لَا يَجِب أن تَتَطلَّع عليْهَا فَتؤذِيك، وَفِي الابْتعاد المبالغ فِيه عن النَّاس الجفْوة والنِّسْيان... لَقد أدركت قِيمة التَّوازن، وَقِيمَة اَلأُسرة، وَقِيمَة أن أَكُون سعيدًا مع اِبْنِي وزوْجَتي، ولَقد علمت أنني يجب أن أُحَاوِل جاهدًا أن أُسَاعِد النَّاس، وأن أُعْطيهم من وَقتِي فِي حُدُود اِسْتطاعتي، وعلى الجانبِ الآخر يجب أن أُسامحهم على تقْصيرهم، وأسامح نَفسِي لِأن من حَقِّي أنَا أيْضًا أن أَحيَا بِسعادة وَرضَا وَراحَة... أَدركتُ أن فِعْل الخيْر لِلْجمِيع رَائِع، وَيجِب أن أَستَمر بِه، وأن فِعْل الخيْر مع أُسْرتي يَجِب أن يَكُون أيْضًا من أهمّ اِهْتماماتي وأوْلويَّاتي، وَذلِك لِأن عمل الخيْر لَا يَتَجزَّأ، ولو لَم يكُن لِأسْرَتي اَلنصِيب الأكْبر من اِهْتمامي وَوقتِي وَجهدِي وَحُبي ورعايتي فسيكون هذَا تقْصيرًا منّي فِي إِسْعادهم وإِسْعَاد نَفسِي... لَقد ازداد إدراكي وفهمي للحياةِ كثيرًا فِي الأيَّامِ القليلة اَلتِي قضيَّتها هُنَا، وَلقَد هَالَنِي مَا رأيْتُ من بُكَاء وَحُزن اِبْنِي

وزوْجَتي حِين هويت فِي ظَلَام اَلقُنوط. سَوْف أَعُود قريبًا إِلَيْهما وقد تَغيرَت الزَّاوية اَلتِي أُنظُر إِلى اَلأُمور من خِلالِهَا، سَوْف أَعُود لِأعوِّض مَا فَاتَنِي معهما، ولأسْعدهما، وأحْيَا أنَا بِسعادة أيْضًا مَا بَقِي لِي من اَلعُمر.

اِبْتسمتُ اِبْتسامة رِضَا كَبِيرَة لِمَا سمعتُ من الرَّجل.

لَقد أَدركتُ أن هُنَاك حِكْمَة فيمَا أسْمع وأرى،

ورأيْتُ مُؤشِّر الرِّضَا يَزْداد بِطريقة سَرِيعَة حَتَّى أَننِي بَدأَت أدرَك أَننِي سَوْف أَعُود سريعًا إِلى حَياتِي الطَّبيعيَّة،

وَرُبمَا أَقرَب كثيرًا مِمَّا كُنْت أَظُن أو أُخطِّط.

-٢٨-

العرض الأخير

عُدْت إِلى غُرفَتي هَذِه المرَّة سريعًا لِأن خُطواتي وَحَركتَي أَصبَحت سَرِيعَة بِصورة كَبِيرَة.

جَلست على أريكَتي فِي اِنتِظار عَرْض اليوْم،

وكم تمنَّيْتُ أن يَكُون مُخْتلِفًا عن كُلِّ مَا شاهدَتْه سابقًا . . .

وَسَاد الظَّلَام اَلغُرفة، وَبدَأ العرْض.

رأيْتُ نَفسِي فِي المشْهد الأوَّل عِنْدمَا كُنْت مع الأطْفال أَثنَاء الرِّحْلة اَلتِي دَعتنِي إِليْهَا مريم لِنحاول إِسْعادهم.

كان المشْهد مُركزا على الحركات والْألْعاب اَلتِي كُنْت أَقُوم بِهَا، ثُمَّ اِنتقَل المشْهد إِلى وُجُوه الأطْفال الَّذين يُتابعون العرْض اَلذِي كُنْت أُقَدمه لَهُم . . . كم أَثلَجت صَدرِي تِلْك السَّعادة الشَّديدة اَلتِي اِرْتسَمتْ على وُجوهِهم رَغْم آلامِهم.

كم أَثّرت فِي قَلبِي تِلْك الابْتسامات البريئة الصَّادقة على وُجُوه هؤلاء الأطْفال، وَالتِي لَم أَستَطع مُلاحظتهَا جيّدًا مثلما ألاحظها وأشعر بها الآن!!!

وانْتَقل المشْهد إِلى إِحْدى الأمَّهات اَلتِي كَانَت تَبكِي فرحًا لِسعادة اِبنهَا، وتنْظر إِليْنَا اِمْتنانًا وشكْرًا . . .

ثُمَّ اِنتقَل المشْهد بِطريقة سَرِيعَة إِلى مَكتَب مُدير مُسْتشْفَى الأطْفال اَلخيْرِي وَالذِي كان يَتَحدَّث مع مريم وَيقُول:

- كان عمل يُوسف مَعنَا رَائِعًا، لَقد وفَّرنَا من خِلَال عَمِله مَا يَكفِي لِعلاج عَشَرات الأطْفال وإِنْقاذهم، أَنَا شديد الامْتنان لَكمَا على هذَا.

كَانَت مَريَم تَستَمِع إِلى حَديثِه صَامتة ثُمَّ قَالَت:

- إِن يوسف صَاحب قَلْب كبير يُحب الخير، وبالْفعل أَنَا سَعِيدَة لِأن عَمله كان مُفيدًا لِلْمسْتشْفى.

سأل مُدير المسْتشْفى مريم مُبَاشرَة:

- أُعْذريني يَا مريم على تَدخلِي، أنَا أشعُر كثيرًا بِتشابه كثير من الصِّفَات بيْنكمَا، فهل هُنَاك عَلاقَة مَا تجْمعكمَا؟

ظَهرَت على وَجْه مَريَم اِبْتسامة خَفِيفَة خَاطِفة، كَانَت بِالنِّسْبة لِي إجابة أحد أهمِّ الأسْئلة اَلتِي تَدُور بِبالي،

كَانَت تِلْك الابْتسامة أبلَغ من أيِّ حديث بِالنِّسْبة لِي،

كان الحيَاء قد صبغ وَجهُها بِاللَّوْن الأحْمر وَهِي تُجيب مُدير المسْتشْفى بَعْد لَحظَة صَمْت:

- لَا، إنه فقط زَميلِي بِالْعَمل.

أَومَأ مُدير المسْتشْفى بِرأْسه مُتفهِّمًا وَقَال:

- أَتمَنى لَكمَا كُلِّ خَيْر، فكلاكمَا من مَعدِن ثمين، وإكْمالك عَمله بَعْد اِعْتذاره هُو لَفتَة خَيْر طَيبَة منك.

قَالَت بثقةٍ شديدةٍ:

- عِنْدمَا تَتَحسَّن أحْواله، أنَا أَعلَم أنه سَوْف يَأتِي لِلتَّطَوُّع مَرَّة أُخرَى.

ردُّ مُدير المسْتشْفى مُبْتسِمًا:

- وسيسْعدنَا جميعًا أن نسْتقْبله مَرَّة أخرَى مَعنَا.

وَهنَا ظَهرَت اِبْتسامة جَمِيلَة على وَجْه مَريَم،

وَتَوقفَت الصُّورة عِنْد تِلْك الابْتسامة،

وظل العرْض مستمرًا.

أَخذتْنِي تِلْك الابْتسامة رَاحِلة إلى بِلَاد من الأفْكار والْمشاعر،

لَقد وَصلتْنِي الآن إجابة سُؤَالِي عن طَبِيعَة مَشاعِر مريم نَحوِي، وَأيقنت أَنهَا تَنتَظِر مني تحرُّكًا لِطَلب يَدهَا من وَالدِها، لِأن هذَا هُو اَلطرِيق اَلوحِيد لِإعْلَان هذَا اَلحُب لِلْعالم.

أَدركت كم يَحمِل هذَا القلْب من صَفَاء وَنَقاء، واتَّضح هذَا من حَديثِها الرَّائع عن عَمَلِي،

لَقد علمتُ كَيْف أَنهَا أَعطَت اَلمزِيد من وقْتهَا لِخدْمة الأطْفال المرْضى وَلتُعوض غِيابي أيْضًا،

إنها تَستَحِق كُلَّ الخيْر المؤجود فِي هذَا العالم.

أَدركت حِرْصهَا على أن تَأخُذ بِيَدي إلى عَالَم الخيْر والتَّطوُّع والْإحْسان وَالبِر،

لقد كَانَت تَحثنِي دائما على أن أَعرِف مَعنَى الحيَاة الحقيقيَّة، وتدفعني لأدرك معنى السَّعادة، لَقد كَانَت تُشاركني سعادتهَا دُون أن أَشعُر.

أَدرَكت كُلَّ هَذِه اَلأُمور،

وتداخلت بِقلْبي المشاعر،

ومَا زَالَت صُورَة اِبْتسامتهَا أَمامِي على الشَّاشة.

إن مَا رأيْته خِلَال تِلْك الدَّقائق السَّابقة قد أَضَاء بِداخِلي اَلكثِير من المناطق المظْلمة، وفكَّ شَفرَة الحيْرة اَلتِي كَانَت بِداخِلي،

لَقد زَادَت رَغبَتِي فِي اَلْعَودة إلى حَياتِي، وزادت من مَشاعِر الرِّضَا دَاخِل نَفسِي بِصورة كَبِيرَة . . .

كُنْت أَشعُر بِأمْوَاج من السَّعادة تَتَلاعَب بِقلْبي، وأحْسَسْتُ بِخفَّةٍ لَم أَشعُر بِهَا من قبل فِي حَياتِي.

وَهنَا أَضَاء اللَّوْن الأخْضر كَامِل غُرفَتَي ثُمَّ أتى مُسَاعدِي وَقَال بِصوْته المعْدنيّ:

- غدًا سَوْف تَعُود إلى حَياتِك وَوطَنِك، لَقد وَصلت إلى اَلمُعدل المطْلوب لِلْمغادرة.

اِبْتسمت اِبْتسامة وَاسِعة،

وَنمت قرير العيْنِ فِي هَذِه اللَّيْلة.

-٢٩-

ظلام القنوط مرة أخرى!

اِسْتيقظتُ ولأوَّل مَرَّة على صَوْت طُرقات على باب غُرفَتَي،

ورأيْتُ مُسَاعدِي اَلآلِي وَهُو يَتَقدَّم نَحْو اَلْباب، وَيقُول:

- لَا تقْلق، لَقد حان وَقْت مُغادرتك لِلْمدينة.

فُتح اَلْباب،

وَأطَل منه أحد الشَّابَّيْنِ اللَّذَيْنِ أَتيَا بِي إلى المدينة فِي رِحْلَة اَلقُدوم، وَالذِي اِبتسَم ثُمَّ قال:

- تهانينَا أُسْتاذ يوسف على وُصولك إِلى بَعْض مَعانِي الحيَاة السَّعيدة اَلتِي كُنْت تَسعَى إِليْهَا، وَعلَى اِرتِفاع مُؤشرَات السَّعادة لَديْك... لَقد حان وَقْت مُغَادرة المدينة لِتحاول أن تُحقِّق السَّعادة لَك وَلمَن حَولَك، جميعنَا سنفْتقدك كثيرًا.

قُمْت من سَريرِي، وابْتسمتْ لَه، وَقلَّت:

- فِعْلا كلامك صحيح، لَقد وَصلَت فقط إِلى بَعْض مَعانِي السَّعادة، وَيكفِي هذَا حاليا لِلْحصول على الحيَاة اَلتِي أتمنَّاهَا، وَسَأسعَى إِلى اَلمزِيد... شُكْرًا لَكمَا على مُساعدتكمَا، وَأنَا سأفْتَقد المدينة أيْضًا بِكلِّ مَا فِيهَا.

ثُمَّ أكمَلت مازحًا:

- مَا عدَا ظَلَام اَلقُنوط.

ضَحِك الشَّابَّان ثُمَّ اِقترَب الشَّابُّ الآخر، وَقَال:

- هل تَسمَح لَنَا أُسْتاذ يُوسُف أن نَمِر أوَّلا على مَسئُول الاسْتقْبال بِالْمدينة، وبعْدهَا سَوْف نَبدَأ رِحْلتنَا لِمغادرة المدينة؟

ضَحكَت قائلا:

- مَا هذَا؟!! هل لَديْكم إِجْراءات لِلْمغادرة أيْضًا؟!!

نظرًا الشَّابَّان لِبعْضهمَا ولم يُجيبَا وَبُعد لَحظَة صَمْت، قال أَحَدهمَا:

- سَوْف نَنتظِرك بِالْخارج أُسْتاذ يوسف، ولَا تَنْس أن تحضر الصُّنْدوق اَلذِي تسلَّمته حِين قدومك لِنعيد تسْليمه قَبْل المغادرة.

أجبْتُ سريعًا:

- على الرحب والسَّعة، دَقائِق وسوْف أَكُون مَعكُما جاهزًا لِلْمغادرة، فَأنَا أشْتَاق أيْضًا لِلْعوْدة لِحياتي الطَّبيعيَّة.

أَخذت وَقتِي فِي التَّحْضير لِلْمغادرة،

وجمعت الأدوات اَلتِي كَانَت بِالصُّنْدوق الأصْفر . . .

وكَانَت السَّعادة تَغمُرني . . .

ذَهبت إِليْهِمَا، وَأنَا أَشعُر أَننِي لَا أَكَاد اَلمَس الأرْض من فَرْط سُرْعتي وسعادتي...

أَحسَست بِقفْزاتي السَّريعة، وَبخِفة حَركَة لَم أَشعُر بِهَا من قِبل . . .

بدأْنَا رِحْلَة الذَّهَاب إِلى مَكتَب المسْئول، وأدْهشني أَننِي قَطعَت تِلْك المسافة فِي عدد صغير من الخطوات كَأنني كُنْت أطير!!! وَهنَا أَدرَكت الفارق بَيْن خُطواتي الثَّقيلة البطيئة عِنْد قَدومِي إِلى المدينة، وتلْك اَلخِفة والسُّرْعة اَلتِي تَتَميَّز بِهمَا خُطواتي الآن.

إنه حال الدُّنْيَا . . .

تَجِد أن الشَّخْص اليائس والْحيْران والْمحْبط بطيء الخطوات، وَتجِد أن الشَّخْص اَلسعِيد والْمتفائل سريع الخطوات،

وَتجِد أن اَلحزِين والْمهْموم يَحمِل هُمُومَه وَحُزنَه كأَثْقَال لَا يَستطِيع الفكَاك منهَا فتعيق حياته وتعيق حركته فَيمشِي مُتثاقلا، بيْنمَا اَلسعِيد المتفائل يَمشِي

بِخفَّة وَسُرعَة كَأنه يطير، لِأن سَعَادتَه قد حَررَت جَسدَه من كُلِّ الأحْمال اَلتِي تُعيق حركته.

قد لَا يَكُون الإنْسان اَلسعِيد خاليًا من اَلحُزن وَمن اَلهُموم، وَلَكنَّه شَخْص يَعلَم أن اَلحُزن والْهموم هِي أُمُور لَا بُدَّ من حُدوثِهَا، وَيُعرَف أن اَلحُلول لَا بُدَّ من وُجودِهَا، وأن الفرج والْيسْر يَأتِي مع اَلعُسر مُضاعَفًا، وأن اَللَّه مَوجُود ويسْتطيع أن يُخْرِجه من هَمِّه وَيدرِكه بِرحْمَته.

كُنَّا قد وصلْنَا إلى مَسئُول الاسْتقْبال بِالْمدينة، وَالذِي رَحَّب بِي، واسْتَلم مَنِي الصُّنْدوق، وَنظَر بِداخِله نَظرَة سَرِيعَة ثُمَّ قال:

- نَشكُرك على قَبولِك دعْوتَنَا، وَعلِي إِقامَتك مَعنَا تِلْك الفتْرة البسيطة، ونتمَنَّى أن تَكُون اِسْتمتعت بِإقامتك فِي مَدِينَة السَّعادة، ويسْعدني الاسْتماع الآن إِلَيك لَأعرِف رأْيك، ولتخبرني أيْضًا إِن كَانَت هُنَاك أيُّ شَكوَى لَديْك.

نَظرتُ لَه بِجدِّيَّة قائلا:

- إن مَشرُوع هَذِه المدينة هُو من أَفضَل الأشْياء اَلتِي رَأَيتهَا فِي حَياتِي، فذَلِك النِّظَام والتَّرْتيب وتفاصيل الإقامة تُؤدِّي بِالْفِعْل إِلى تَغيِير مَلمُوس فِي أَغلَب الأشْخاص الَّذين يُقيمون هُنَا. لَقد تَعلمتُ هُنَا مَعنَى السَّعادة، وكيْف يُمْكنني أن أعيش سعيدًا، وتعلَّمتُ مَاذَا أُريد، وكيْف يُمْكِن أن أُحقِّق مَا أُريد... لَقد تَغيرت حقًّا خِلَال تِلْك

الأيَّام، وَلكِن هل يُمْكِن أن يَزُور كُلُّ النَّاس تِلْك المدينة، وأن يَتَعلَّم اَلجمِيع كَيفِية الحيَاة السَّعيدة؟

وَضع يَدِه على كَتفِي قائلا:

- إن إِمْكانات المدينة لَا تَسمَح بِهَذا، لأن هذَا المشْروع مَا زال بِحاجة إِلى اَلكثِير من العمل والتَّطْوير... نَحْن نَتَمنَّى أن يعيش اَلجمِيع بِسلام وَسَعادَة، ونتمَنَّى أن يَغمُر اَلحُب والاحْترام كُل العالم، وَرُبمَا يَجِب على كُل من زار المدينة أن يعلّم من حَولِه كَيفِية الحيَاة السَّعيدة، وأن يَكُون مثلا يُقتَدَى بِه الآخرون، ومع هذَا فَإِن البرْنامج لَا يَنجَح مع اَلجمِيع، رَغْم أن اِخْتيارهم تمَّ اِعْتمادًا على ترْشيحات من أَشخَاص نَثِق بِهم، فنحْن نَعلَم تمامًا أن اَلجمِيع يَبحَث عن السَّعادة، وَلكِن قليلا من النَّاس من يَستطِيع أن يعيشَهَا ويلْمسهَا ويطبّقهَا ويجعلهَا طَرِيقَة حَياتِه.

ثُمَّ أَردَف ناصحًا:

- خَالَط الصَّالحين لِتصلح، وَخالِط السُّعداء لِتسْعد.

ثُمَّ صَمت قليلا، وَبدَا على وَجهِه التَّرَدُّد، ثُمَّ قال:

- الآن أَنْت على وَشْك مُغَادرَة المدينة، سَوْف تَأخذ منا وَرقَة سَوْف تَكُون وَسِيلَة تواصلنَا معك، وسوْف يُتَاح لَك من خِلالِهَا دَعوَة الأشْخاص إِلى المدينة، وأيْضًا سَوْف تَجِد أَسمَاء من يَسقُط فِي ظَلَام اَلقُنوط من الدَّائرة القريبة منك مَكتُوبة مع حَالتِهم خَلْف هَذِه

الورَقة، واعلم أنّه لَا يُمْكِنك التَّحَدُّث عن تجْربَتك، أو زِيارَتك لِلْمدينة مع أحد.

ثُمَّ وَضع الورَقة أَمامِي وكانت صفراءُ اللونِ كالعادةِ، وأكْمل:

- إن هُنَاك مَوضُوعا هامًّا أيْضًا، هُنَاك شَخْص قريب منك سقط اليوْم فِي ظَلَام اَلقُنوط، وَيجِب أن تَعمَل على إِنْقاذه... كُلنَا آسفون على هذَا، وَلَكنَّك وَحدَك من تَستطِيع إِنقَاذ هذَا الشَّخْص.

لَم أَستَطع أن أُنظُر إِلى الورَقة، وَإِنمَا نَظرت إِلى المسْئول وسألته:

- من هُو؟

نظر إِلى الأرْض وَأَجاب بِصَوت ضعيف يَحمِل بَعْض اَلحُزن:

- لِلْأسف، إِنهَا مريم.

ساد الصَّمْتُ بيْنَنَا لِلحظَات فقد صَدمَنِي الخبر، وَكُنت أُحَاوِل أن أُخفِّف من وَطأَة هذَا الخبر على نَفسِي، وأن أَتَساءَل: هل يُمْكِن أن تَسقُط مَريم اَلتِي تَنشُر السَّعادة بَيْن اَلجمِيع فِي ظَلَام اَلقُنوط؟!!

قرأ المسْئول ما يدورُ بخاطري، وَأَجاب دُون أن أنْطِق:

- لَا تَتَعجَّب، كُلُّ النَّاس مُعرَّضون لِهَذا الخطر حَتَّى أَكثرِهم سَعادَة وأكْثرهم وعْيًا بِمعْنى السَّعادة... كُلُّ شَخْص وَفِي لَحظَة معينة تَتَأثَّر حياته بِصدْمة مَا أو بِحَدث مَا فَيفقِد اَلقُدرة على التَّكيف وَعلَى التَّفْكير، وتتوَقَّف حياته عِنْد هَذِه اللَّحْظة، وَتضعف إِرادته وقدْرَته على اَلخُروج من هَذِه الأزْمة، وَهنَا يَحْتاج الشَّخْص إِلى من

يُساعِده، وَيخرِجه من أَزمَته، وَلكِن نَحْن نَعلَم جيّدًا أن من يُسْعدون غَيرهم ويقومون بِأعْمَال الخيْر لَا يظلُّون كثيرًا فِي هذَا الظَّلَام، بل دائمًا وسريعًا يَجدُون من يُخرجهم منه. إنها فُرْصتك لِتخرجهَا من هذَا الظَّلَام وَترُد جميلَهَا.

قُلْت بِشكٍّ فِي قُدْرتي على إِخْراجهَا:

- وهل يُمْكِن لِي فِعْلا أن أُساعدهَا؟

رد مُؤَكدا:

- بل أَنْت الشَّخْص اَلوحِيد فِي هذَا العالم اَلذِي يُمْكِن أن يُساعدهَا، هَيَّا اِذْهب حالًا فالطَّائرة الطَّوَّافة فِي اِنْتظارك.

-

-٣٠-

العودة.. لحياتي

عُدْت سريعًا إِلى الشَّابَّيْنِ، لِنَنْطَلق فِي رِحْلتِنَا نَحْو مَنزِلِي فِي مَدِينَة اَلوُرود. مَا أن جلسْنَا فِي مقاعدنَا، وبدأتْ رِحْلتنَا، حَتَّى سَألت أحد الشَّابَّيْنِ بِاهْتمام:

- هل يُمْكِن أن تُخْبرَني عن الطَّريقة اَلتِي يُمْكِن أن تُنْقِذ بِهَا شخْصًا من ظَلَام اَلقُنوط؟

اِعتدَل الشَّابُّ فِي جَلسَتِه وَقَال:

- هُنَاك اَلعدِيد من الطرق والْوسائل، وَكُلهَا تَتَوقَّف على مَعرِفة السَّبب الرَّئيسيّ اَلذِي أَدَّى بِهَذا الشَّخْص إِلى اليأْس اَلشدِيد اَلذِي كان سببًا لِسقوطه فِي هذَا الظَّلَام، فعليْك بِمعْرِفة السَّبب أوَّلا، ثُمَّ يَنبَغِي أن تَعمَل على أن تُعيد الأمل إِلَيه لِيصْبح نُورًا يُساعِده على اَلخُروج من هذَا الظَّلَام، كمَا يَنبَغِي أن تُحَاوِل أن تُعيد إِلَيه الشَّغف اَلذِي فَقدَه، والْإرادة فِي الحيَاة اَلتِي اِنْكسَرت أو ضَعفَت.

ثُمَّ أَردَف قائلا:

- حِين يظهر النُّور فَإِن الظَّلَام حتْمًا يَختَفِي.

شَكرَت الشَّابَّ على إِجابَته،

ثُمَّ قام من مَقعَدِه، وأحْضر مَشرُوبا، وَقَال:

- لَا تَنْس، يُمْكِنك تَوجِيه الدَّعْوة لِلشَّخْص اَلذِي ترى أنه يُمْكِن أن يَتَعلَّم مَعنَى الحيَاة السَّعيدة، وَأنه فِي حَاجَة لِهَذه الدَّعْوة، ويسْتحقَّهَا، وسوْف نَتَلقَّى طَلَبُك بِمجرَّد كِتابَتك اِسْم الشَّخْص هذَا على الورَقة اَلتِي أعْطاهَا المسْئول لَك.

أَومَأت بِرأْسي مُوافِقًا،

وأكْمل الشَّابُّ مُبْتسِمًا:

- هل تَتَذكَّر هذَا المشْروب؟

اِبْتسمتُ قائلا:

- بالطبع أتذكره، رَغْم أنه لَذيذ فَإنه يُفْقدني الوعْي.

اِبتسَم الشَّابُّ وَقَال:

- لَقد حان موْعده، وحين تَستيْقِظ سَوْف تَكُون فِي مَنزلِك.

أَخذَت المشْروب من الشَّابِّ،

واسْتمْتعت هَذِه المرَّة بِشرْبه وَكمَا حدث المرَّة السَّابقة،

بِمجرَّد أن أنْهيته،

لَم أَعُد أَشعُر بِأيِّ شَيْء.

-٣١-

في منزلي

اِسْتيْقظْتُ وَأنَا فِي مَنزلِي، وَفِي سَريرِي، وعلى رنين مُنبهِي عِنْد السَّاعة السَّابعة صباحًا كعادَتي كُلَّ يَوْم.

كَانَت أَسئِلة كَثِيرَة تَدُور بِرأْسي، وَترهِق تفْكيري،

وَفِي نَفْس الوقْتِ كُنْت أَشعُر بِإرادة حَديدِية لِتغْيِير تصرُّفاتي وأفْعالي.

سَألَت نَفسِي:

- هل كُنْت أَحلُم؟!! أم أن كُلَّ مَا مررْتُ بِه كان حَقِيقَة؟!! وكم من الأيَّام قد مرَّ مُنْذ رَحيلِي؟

رأيْتُ الورَقة الصَّفْراء اَلتِي أَخَذتهَا من مَسئُول اِسْتقْبال المدينة، فَأَدركَت أن كُلَّ هَذِه الأحْداث كَانَت حَقيقِية.

قُمْت من سَريرِي مُمْتنًّا وَشاكِرًا لِلَّه على وُجودي فِي مَنزلِي، وعوْدَتي إِلَيه، وَعلَى وُجُود وظيفتي، وَعلَى هذَا اليوْم اَلجدِيد اَلذِي يَجِب أن أسْتغلَّه لِإصْلَاح مَا أفسدت سابقًا.

نَظرتُ إِلى هَاتفِي اَلذكِي فَإذَا بِالتَّاريخ لَم يَتَغيَّر.

إنه نَفْس التَّاريخ اَلذِي غادرت فِيه.

كَأنَنِي لَم أَذهب إِلى أيّ مَكَان، وَتَعجبت كثيرًا من هذَا الأمْر. ولكنَّني تَذكرت كلمات مَسئُول المدينة، وَهُو يَقُول إن إِقامَتي بِالْمدينة لَن تُؤثِّر على عَمَلِي أو حَياتِي الحقيقيَّة.

اِرْتديتُ مَلابِسي، وخرجت مُسْرِعا من باب مَنزلِي لِأبْدأ يَومِي، ولْأسْأل عن حَالَة مريم.

-٣٢-

حالة مريم

مَا أن دَخلتُ إِلى مقر عَملِي حَتَّى كَانَت عَيْناي تبْحثَان عن مريم.

كُنْت أودُّ أن أَعرِف أحْوالهَا، وكيْف تَبدُو الآن.

وأخيرًا وَجدتُها جَالِسة وَحِيدَة – على غَيْر العادة – إِلى مَكتبِها، تَجلِس مُنكمشَة، ويبْدو عليْهَا شُرُود الذِّهْن، فَألقيتُ عليْهَا تَحيَّة الصَّبَاح... بدَا كأنهَا لَم تَسمعْنِي، أو حَتَّى تُلَاحِظ وُجودي.

هَالَنِي حال مريم،

إنها تَبدُو مُرْهقة، وَشارِدة، وَحَزينَة . . .

تَذكرتُ مَا سمعْته من أحد الشَّابَّيْنِ عن كَيفِية إِخرَاج شَخْص من ظَلَام اَلقُنوط،

فذهبتُ سريعًا إِلى أحد زُمَلاء العمل، وَالذِي اِخْترْتُ أن أَسأَله نظرًا لِأن أختَه كَانَت صَدِيقَة مُقَربَة لِمريم،

طَلبتُ منه أن يَسأَل عن أَحوَال مَريَم، ومَا هُو سِرُّ شُرودهَا؟ لِأن الزُّملاء فِي العمل لَا يعْرفون سِر هذَا التَّغَيُّر.

وأخْبرته نِيَّتي أن أَتقَدم لِلزَّوَاج منهَا، ووعدَني أن يُخْبرَني اليوْم مَا اَلذِي أَدَّى بِمريم إِلى تِلْك اَلْحال.

تَركت زَميلِي، وذهبْتُ لِأسْأل عن عَمَّار.

أخْبرَني الزُّملاء أنه لَم يَحضُر إِلى مقرّ العمل اليوْم لِمرضه، كُنْت أَعلَم لِماذَا تَسلُّل اليأْس إِلى قَلْب عَمَّار، وَكُنت أَعلَم بِأن مُعاملتي لَه من أَسبَاب هذَا الإِحْباط.

أَخذت عُنْوانه وتليفونه من إِدارة الموارد البشريَّة بِالشَّركة حَتَّى أَستطِيع أن أَتَواصَل معه، وأساعده، وأصْلح علاقَتي بِه.

مرَّ الوقْتُ بطيئًا، وَأنَا فِي اِنتِظار أَخبَار مَريَم.

كُنْت أُفكِّر فِي كلمات المسْئول بِالْمدينة عِنْدمَا قال أنني اَلوحِيد اَلذِي يُمْكِن أن أُساعدهَا.

كُنْت أودُّ مَعرِفة لِماذَا وَصلَت إِلى تِلْك المرْحلة؟

وَكُنت أريدُ كثيرًا مُساعدتهَا.

كُنْت على استعدادٍ لفعلِ المستحيلِ لكي أُخْرجهَا من هذَا الظَّلَام كمَا أخْرجتْني هِي منه.

وأخيرًا، وبعْد أن طال اِنْتظاري جاء زَميلِي، وَقَال:

- لَقد عَلمتُ مَا حدث.

قُمْت من مَكانِي، وَأَمسكَت بكَتفه قائلا:

- هَيَّا بِسرْعة، أرجوك أن تخْبرَني.

قال زَميلِي:

- لَقد عَلمت أن شخْصًا قد تَقدَّم لِلزَّوَاج منهَا، وَهُو شَخْص ذُو مُميزَات عَدِيدَة، وميْسور اَلْحال، ويعْمل بِالْخارج، ويريد أن تُسَافِر معه، وهي لَا تُريد السَّفر لِلْخارج، لِأن أَعمَال التَّطَوُّع والْخَيْر اَلتِي تَقُوم بِهَا هُنَا فِي مَدِينَة اَلوُرود كَثِيرَة، وتريد أن تُكْمِل حَيَاتهَا هُنَا، وَلكِن هَذِه المرَّة يُصرّ أَهلها كثيرًا على أن تَقبل الزَّوَاج، فَهُم يرون أن هذَا الرَّفْض سَوْف يَضُر بِهَا، وأن مصْلحتهَا فِي أن تَتَزوَّج الشَّخْص المناسب، ويرون أيْضًا أنه مُنَاسِب جِدًّا لَهَا، وقد أمْهلوهَا أُسبُوعا واحدًا لِلتَّفْكير وللْموافقة، وَلِهذَا فَهِي شَارِدة الذِّهْن، ولَا تَعرِف مَاذَا تَفعَل مع كُلِّ هذَا الإصْرار.

كُنْت أستمَع إِلى كَلامِه، وأفكِّر في حَل لِتلْك المسْألة.

ومَا أن أَنهَى زَميلِي كلامه حَتَّى لَمعَت عَيْناي، وَقُلت:

- أنَا أَعلَم الآن مَاذَا يُمْكِن أن يَكُون الحَل.

ثم تركته مُنْدهِشًا،

وذهبتْ إلى مَكتَب مَريَم، وكرَّرت اِسمهَا بِصَوت مُرْتَفِع عِدَّة مَرَّات لِأُخْرجهَا من شُرودهَا.

اِنْتبَهتْ من شُرودهَا ونظرتْ إليّ قَائِلة:

- أُسْتاذ يوسف، أهْلا بِك.

قُلتُ بِجدِّيَّة، وَدُون مُقدمَات:

- مَتَّى يُمْكِن أن أقَابِل والدك؟

رَدَّت بِابْتسامة بَاهِتة بَدأَت تَرتَسِم على وجْههَا:

- ولماذَا تُريد أن تُقَابِل وَالدِي؟

قُلت بِنَفس الجدِّيَّة:

- لِأَني أريد أن أطلُبك لِلزَّوَاج يَا مَريم، وأتمَنَّى أن أَكُون لَائقًا بِك.

أشاحتْ بِوجْهِهَا حياءًا، وقد ظَهرَت اِبْتسامتهَا أخيرا لِتضيء وجْههَا، وصمتتْ.

فَأكملت حَديثِي:

- هل يُمْكِن أن أزورَكم اليوْم؟

قَالَت بِصوتٍ مهمومٍ:

- يَجِب أن تَعلَم أن هُنَاك شخْصًا آخر قد طلب من أَبِي . . .

فقاطعتْهَا قائلا:

- أنَا أَعلَم اَلقِصة كُلهَا، وَلكِن إِن كُنْت تُوافقين، سَوْف أَذهَب لِأقابل والدك، وأطْلب يدك منه اليوْم، وسأكون سعيدًا لِتلْبِية كُلِّ طلباتكم من أَجْل إِتمَام هذَا الزَّوَاج.

فَكرّت قليلا، وقالتْ:

- هُنَاك شَرْط وَاحِد: هل يُمْكِن أن تُنَفذه؟

أجبْتُ مُتسائلا:

- ومَا هُو هذَا الشَّرْط؟

قَالَت، وقد بَدأَت تَعُود إِلى طبيعتها وشخْصيَّتهَا المعْتادة:

- أن تَتركني أَقُوم بِالْعَمل التَّطوُّعيّ، وأن أسَاعِد الأطْفال المرْضى وأزورهم، وأساعد كُل مَن يَحْتاج لِلْمساعدة.

قُلْت بِابْتسامة:

- إِنْ كتب اَللَّه لَنَا الزَّوَاج، سَوْف نَقُوم بِعَمل هذَا الخيْر والتَّطوُّع معًا.

اِبْتسَمتْ هِي أيْضًا وقالتْ:

- سَوْف أتكَلم مع وَالدِي، وَأعرِف رَأيَه، وَأعُود إِلَيك.

ثم ذَهبت إِلى مَكتَبِي مُنتظَرا خبرًا من مَريَم.

وَمضَت دَقائِق مَرَّت كَعُمر طويل حَتَّى أتتْ مَريَم،

وقد تَحوَّل لَوْن وجههَا إِلى اللَّوْن الأحْمر من الخجل، وَهِي تَقُول:

- يُمْكِنك أن تَأتِي اليوْم فِي السَّاعة الثَّامنة مَسَاء، وَالدِي سَوْف يَكُون فِي اِنْتظارك.

لم تنتظر ردي وانصرفت إِلى مَكتبِها،

ورأيتها وقد بدأت تَستعِيد نَشَاطهَا وحيويَّتهَا من جديد.

فَكرت فِيمَا حدث الآن بِطريقة مُختلفَة،

إن طَبِيعَة الإنْسان رَقِيقَة وَهشَّة بِالْقَدر اَلذِي يُمْكِن بِحَدث وَاحِد أن يَهوِي بِه إِلى الإحْباط والْيَأْس، وَبِحدَث آخر أن يُعيد إِلَيه الأمل والْحياة.

وَتَذكرت كلمات مَسئُول المدينة عِنْدمَا قال أن الإنْسان اَلذِي يَفعَل الخيْر، وَحتَّى إن سقط فِي ظَلَام اَلْقُنوط فَإِن اَللَّه سَيدركه بِنوره، وَيرسِل إِلَيه من يُساعده.

-٣٣-

في بيت مريم

فِي السَّاعَةِ اَلثَّامنة تَمَامًا،

كُنْت أقِفُ أَمَام بَابِ بَيْتِ مريم، وَفِي يَدِي عُلْبَة اَلشُّوكُولَاتَة، وَقَد طَرقت اَلْبَابَ طرْقَات خَفِيفَة . . .

فَتحَ اَلْبَابَ وَالِدُ مَرْيَم،

وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ أَشْيَب الشعْرِ يَبْدُو أنهُ قَد تَجَاوَزَ اَلسِّتِّين من عُمْرِهِ، وَتَشْعر بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِكَ لَهُ بِالْهَيْبَةِ اَلشَّدِيدَة.

وَمن مَظْهَرِ اَلرَّجُلِ، عَلمتُ لِمَاذَا يُرِيدُ أَنْ يُزَوِّجَ اِبْنَتَهُ لِلشَّخْصِ اَلْمُنَاسِبِ سَرِيعًا،

إنهُ يُرِيدُ اَلِاطْمِئْنَان عَلَى مُسْتَقْبَلِهَا، فَهِيَ اِبْنَتُهُ اَلْوَحِيدَةُ.

دعَاني وَالِدُ مريم للدُّخُولِ إِلَى اَلْمَنْزِلِ اَلَّذِي كَانَتْ قِطَعُ اَلْأَثَاثِ وَالْوُرُود اَلْمَوْضُوعَة فِي مَدْخَلِهِ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَاقَةٍ وَجَمَالٍ.

وَصَلْنَا إِلَى غُرْفَةٍ وَاسِعَةٍ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ لِأَجْلِسَ عَلَى أَرِيكَةٍ فِي أَحَدِ أَرْكَانِ اَلْغُرْفَةِ، وَجَلَسَ هُوَ عَلَى مَقْعَد بِجِوَارِهَا.

جَلستُ وَبَدأتُ فِي اَلْحَدِيثِ مُبَاشَرَة قَائِلاً:

- أَنَا سَعِيدٌ لِوُجُودِي هُنَا اَلْيَوْم، وَسعيدٌ بهذَا اللقاءِ.

قَالَ بِابْتِسَامَةٍ هَادِئَةٍ:

- عَلَى اَلرحْبِ وَالسَّعَةِ يَا بُنَي.

قُلْتُ وَأَنَا أحَاوِلُ أَنْ أعَبِّرَ عَمَّا يَدُورُ بِدَاخِلِي:

- إننِي زَمِيل اَلْأُسْتَاذَةِ مريم فِي اَلْعَمَلِ.

رَدَّ بِنَفْسِ اَلِابْتِسَامَةِ اَلْهَادِئَةِ:

- أعلمُ هذَا، فَقَد أَخبرتنِي مريم بذَلِكَ، وَقَالَت أَيْضًا إنكَ تُشَارِكُ فِي أَعْمَالِ اَلْخَيْرِ وَالتَّطَوُّعِ مَثَلَهَا، وَهَذَا شَيْءٌ جَمِيلٌ منكُمَا، كَمَا أنني أَعْلَم بَعْض اَلتَّفَاصِيلِ عَنْكَ.

كَانَ أسْلُوبُهُ هَادِئًا مُرِيحًا لِلنَّفْسِ وَمُشَجِّعًا، فَأَكْملت حَدِيثِي:

- هذَا يُشجّعُني أنْ أتَقَدَّمُ بِطَلَبِي إليك مُبَاشَرَة، لَقَدْ أتَيْتُ اَلْيَوْم طَالِبًا اَلزَّوَاج من مَرْيَم، أَنَا لَدَيَّ مَسْكَنٌ مُنَاسِبٌ، وَوَظِيفَةٌ، وَمُسْتَعِدٌّ لِتَلْبِيَةِ جَمِيعِ طَلَبَاتِكُمْ .

لَمْ تُفَارِقْهُ اِبْتِسَامَتهُ اَلْهَادِئَة، وَهُوَ يُجيبني:

- لَقَدْ أخْبَرَتْنِي مَرْيَم بِطَلَبِكَ، وَبِمُوَافِقَتِهَا أَيْضًا، وَبِشَرْطِهَا عَلَيْكَ، وَلَكِنْ أَنَا لَدَيَّ طَلَبَاتٌ منكَ أَيْضًا.

قَاطعتهُ سَرِيعًا:

- وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ لِتَنْفِيذِ أَيِّ طَلَبَاتٍ، مَهْمَا كَانَتْ صَعْبَةً.

قَالَ بصوتٍ هادئ:

- طَلَبِي أَن تَصُونَ اِبْنَتِي، وَأَنْ تَكُونَ هِيَ أَمَانَتِي لَدَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَحْفَظَ هَذِهِ اَلْأَمَانَة، وأَنْ تَكُونَ أَنْتَ لَهَا اَلْأَمْن اَلَّذِي تَحْتَاجُهُ، وَأَن تُعَاملها بِالرَّحْمَةِ وَالرِّفْقِ.

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلاً:

- أَمَّا عَنْ اَلطَّلَبَاتِ اَلْمَادِّيَّةِ لِلزَّوَاجِ فَلَا طَلَبَات لَدَى، إنهُ بَيْتُكمَا ومستقبلكما، وأنا معكما فيما تريدان بِكُلِّ مَا أَسْتَطِيعُ، إن اِبْنَتِي أَغْلَى من كُلِّ مَا أَمْلِكُ من اَلدُّنْيَا، فَسَعَادتهَا سَعَادَتِي، وَحُزْنهَا حُزْنِي، مَا يَشْغَلُنِي حقيقة هُوَ مَن يَحْفَظُ وَيَصُونُ اِبْنَتِي مَرْيَمْ . . .

ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ:

- هَلْ تُوَافِقُ عَلَى طَلَبِ مَرْيَم، وَطَلَبَاتِي؟

قُلْتُ مُبْتَسِمًا:

- بِالطَّبْعِ أوافق، هَذِهِ اَلطَّلَبَاتِ تَدُلُّ عَلَى حُسْنِ اَلِاخْتِيَارِ، وَعَلَى اَلْأَصْلِ اَلطَّيِّبِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ أَخْذُلَكُمْ أَبَدًا.

قَالَ وقد بدت علامات الارتياح على وجهه:

- اِتَّفَقْنَا، وَمَتَى سَتَأْتِي لِإِنْهَاءِ اَلِاتِّفَاقِ وَإِعْلَانِ اَلْخُطْبَةِ؟

أجبته قَائِلاً:

- إن أُخْتِي وَزَوْجَهَا بِمَثَابَةِ أَبِي وَأُمِّي رَحِمَهُمَا اَللَّهُ، وَنَظَرًا لِأن زَوْجَ أُخْتِي مَرِيضٌ فَلْيَكُنْ مَوْعِدُنَا بَعْدَ شَهْر من اَلْآن - بِإِذْنِ اَللَّهِ – لنتمّم هذا الِاتّفاقَ.

اِتَّفَقْنَا عَلَى اَلْمَوْعِدِ، وَأحضرَت مَريَم اَلْقَهْوَة،

وَقَدْ رَأَيْتُ اَلسَّعَادَة تُطِلُّ من عَيْنَيْهَا،

وَضَعَت اَلْقَهْوَة أَمَامَنَا ثُمَّ غَادَرَتْ اَلْغُرْفَة.

وَكَانَ هَذَا اَلْيَوْم من أَسْعَدِ أَيَّامِ حَيَاتِي،

فَقْد بَدأت أَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ اَلْحَقِيقِيَّةِ تَدِبُّ فِي أَرْكَانِ حَيَاتِي.

-٣٤-

أمام متجر بيع الأغذية

خَرجتُ إِلى الشَّارع مُسْرِعا وسعيدًا،

وذهبتُ إِلى مَتجَر بَيْع الأغْذية اَلذِي أَتَعامَل معه فِي شِرَاء مَا أحْتاجه.

رأيْتُ أمامه نَفْس الرَّجل اَلذِي كان يُريد سابقًا أن يُحَدثنِي، وَالذِي كان بطل العرْض الأوَّل فِي مَدِينَة السَّعادة.

لم أدخَل إِلى المتْجر مُبَاشرَة كعادَتي، وَإِنمَا تَوقفَت أَمَام الرَّجل مُبْتسِمًا، وَقلت:

- أهْلا بِك، أُعْذرني على مَا حدث بيْننَا سابقًا، هل يُمْكِن أن تُكْمِل حَدِيثَك اَلذِي لَم تُكْمِله فِي المرَّة السَّابقة؟

أَجَاب الرَّجل مُتلعْثمًا:

- العفْو يَا سَيدِي، أنَا أريدُ أن أحكِي لَك قِصَّتي، أنَا (ياسر) مَسئُول علاقَات عَامَّة سَابِق فِي إِحْدى الشَّركات، وَلقَد حَدثَت مُشْكِلة فِي اَلشرِكة.....

اِسْتمعتُ إِلَيه حَتَّى أنهَى قِصَّته كَامِلة، وَالتِي كُنْت أعرِفها جيّدًا، ومَا أن أَنهَى حديثه حَتَّى قلت:

- هل يمكن أن تدخل مَعِي إِلى المتْجر؟

هزّ رأسَه موافقا،

فدخلْنَا معًا إِلى المتْجر، وَألقِيت اَلتحِية على مَالكِه الذي كان يعْرفني جيّدًا.

اِقْتربتُ من مَالِك المتْجر، وَقلَّت:

- إن هذَا صَديقِي يَاسر، وَلقَد أتيْتُ بِه لِيتعَرَّف على مَتجَرِك، وليشْتري منك كُلَّ اِحْتياجاته.

اِبتسَم مَالِك المتْجر، وَقَال:

- أهْلا بِك أُسْتاذ يوسف دائمًا، وأهْلا بِكلّ من يَأتِي معك.

قُلْت، وَأنَا أُعطِيه كُلَّ اَلْمال اَلذِي مَعِي مَا عدَا مَا يَكفِي احتياجاتي لِهَذا اليوْم:

- سَوْف يَأتِي صَديقِي لِيأْخذ مَا يحْتاجه من مَتجَرِك يوْميًّا، وسوْف تخصم من هذَا اَلْمال مَا يَشترِيه.

ردُّ بِاهْتمام وَهُو يَكتُب فِي دَفتر أمامه:

- سَوْف أسجِّل المبلغ اَلْمالي اَلذِي أَخذَته منكما الآن، وسوْف أَبلُغك يَا أُسْتاذ يُوسف بِكلِّ مَا يَتِم خَصمه بِصورة دَورِية.

رَددت بِسرْعة:

- لَا تُبَلغنِي أنَا، إنه مَالُه، لِذَا سَوْف تُبْلِغه هُو لِيحدِّد اِحْتياجاته... إنه سيضعه معك لِأَنه كثير الإنْفاق فِي أَشيَاء لَا أَهَميَّة لَهَا، وَهذَا سَوْف يُؤمن لَه مَا يَحْتاج من مَتجَرِك لِفتْرة.

نظر مَالِك المتْجر إِلى يَاسِر، وَقَال:

- نَحْن نَشكُركم لِثقتِكم فِي مَتجرِنا، وَهذَا يُسْعدنَا.

قُمْت بِشراء احتياجاتي، وَقَام يَاسِر أيْضًا بِشراء مَا يحْتاجه هُو وأسْرَته، وخرْجنَا معًا.

تَوَقفنَا أَمَام المتْجر، ورأيْتُ نَظرَة اِمتِنان تطلّ من عيني ياسر، وَقَال مُفَسرا مَا يَشعُر بِه:

- شُكْرًا لَك على كُلِّ شَيْء، إنك حَتَّى لَمْ تُخْبِر مَالِك المتْجر بأن ذَلِك اَلْمال يَعُود إِلَيك.

قَلت بصوت هادئ:

- لَا تَشكرني، الحقيقة هي أن هذَا اَلْمال قد أَصبَح لَك، وَهُو رِزْق اَللَّه لَك ولأوْلادك.

ثُمَّ أَردَفت:

- أُعْذُرني وسامحْني مَرَّة أُخرَى على مَا حدث منّي أَمْس.

أَجَاب بِهدوء وبابتسامةٍ صافيةٍ:

- وكيْف لَا أسامِحك، إنك شَخْص تَحمل الخيْر لِلْجمِيع.

قَلت مبتسمًا:

- أَتمَنى أن أَكُون هَكذَا، إننا يَجِب أن نُهوّن الحيَاة على بعْضنَا لِأننَا رُفَقاء هَذِه الرِّحْلة.

قال مُمْتنًّا:

- سَوْف يَسعد أوْلادي جِدًّا اليوْم، ولَا أَعرِف كَيْف يُمْكِن أن أرد لَك مِثْل هذَا اَلمعروف؟

قُلْت، وَأنَا أستَعد لِلذَّهَاب:

- كمَا أخْبرتك سابقًا، إنه رِزْق اَللَّه لَك، فاشْكر اَللَّه اَلذِي رَزقَك... أمَّا بِالنِّسْبة لي، فَيكفِي أن تَكُون أنْت وأوْلادك سُعَداء، وخلال الفتْرة القادمة وقبْل اِنتِهاء هذَا اَلْمال سَوْف نَجِد حلًّا دائمًا لَك - إن شاء اَللَّه -.

وتبادلْنَا أرقَام هواتفنَا لِلتَّواصل،

ثُمَّ اِنصرَف كُلٌّ منا إلى مَنزلِه.

-٣٥-

أمل وزوجها

فِي اليوْم التَّالي عَزمتُ على الذَّهَاب إلى بَيْت أمل . . .

اِنْطلقتُ مُبكرا فِي طَريقِي،

ووصلتُ إلى مَنزلِها فِي الصَّبَاح الباكر،

وطرقتُ بابهَا،

اِنْتظرتُ لَحَظات حَتَّى فَتحَت أمل اَلْباب . . .

اِرْتسَمتْ علامَات السَّعادة الغامرة على وجْههَا، وملأت الدُّموع عيْنيْهَا فرحًا بِمجرَّد رُؤْيتي.

قَالَت أمل، وَهِي تُعانقني:

- أهْلا بِك أَخِي وَابنِي يُوسف، كُنْت أَعلَم أنك لَن تَترُكني وَحِيدَة، وَكُنت أَعلَم أنك سَتأتِي.

غَمرتْنِي السَّعادة أنَا أيْضًا لِوجودي مَعهَا، ولكنِّي لَم أَستَطع أن أَتفوه بِكلمة وَاحِدة بَعْد حَديثِها،

ثُمَّ دخلْنَا معًا إِلى مَنزِلِها،

بَدأتُ حَديثِي حِين جلسْنَا قائلا:

- وكيْف يُمْكِن أن أَتأَخر عن أُخْتِي التِي رَبتني، وَالتِي أَخّرت زَوَاجهَا من أَجْل التَّفَرُّغ لِتربيتي، وَالتِي أعْتبرهَا أُمِّي الثَّانية! إنك من اعْتنيتِ بِي عِنْدمَا لَم يَكُن لَدى أحد من النَّاس، وَلقَد ضحيتِ وتركتِ اَلمنْزِل لِي، وأنْتَ رَاضِية . . . ومهْمَا فَعلَت فِي حَياتِي لَن أَستطِيع أن أرد معروفك هذَا، لَا تُؤاخذيني فِيمَا قلتُ لَكِ من قَبْل، وَلكِن لِماذَا لَم تُذكِّريني بِمَا فعلتِه من أَجلِي؟

قَالَت أمل:

- وهل هُنَاك أمٌّ يُمْكِن أن تمنّ على اِبنهَا بِتربيته والْعناية بِه؟! وهل يُمْكِن لِأمٍّ أن تَجعَل من هذَا الواجب أَدَاة لِلضَّغْط على اِبنهَا؟! إنني أَعرِف أَننِي أُختك وَأمك، ولَا يُمْكنني أن أفعل شيْئًا يُحْزِنك أو يكْسرك.

قلت بِجدِّيَّة:

- هل من جديد عن جمال؟

قَالَت وقد ظهر الحزن على وجهها:

- لَا جديد، مَا زِلْنَا نَبحَث عن حلٍّ، هَيَّا مَعِي لِتراه.

ذَهبنا إِلى غرفةِ جمال الذي كَان راقدًا على سَريرِه،

ومَا أن دخلْنَا عليْه حَتَّى تَهللَت أساريره، وظهرتْ السَّعادة على وَجهِه، وَقَال:

- أهْلا بِك يَا يوسف، أودُّ أن أعانقَك، ولكنَّني لَا أَستطِيع أن أترُك اَلسرِير.

اِقْتربت أنَا منه، وعانقتْه بِسعادة قائلا:

- لَا عليْك، إنها أيَّام وَتُشفَى وتنهضُ وتعَانقني مثلمَا كنتُ تفعلُ دائمًا.

قال بِصوتٍ ضعيفٍ، وَهُو يَتَحاشَى النَّظر إِلى أَعينِنا:

- وَلكِن كَيْف يَا بُني؟

قلت بجدية:

- كُلُّ مَا أريده منك تَقارِير حَالَتِك الطِّبِّيَّة، وتفاصيل العمليَّة الجراحيَّة اَلتِي تحْتاجهَا.

قال، وقد بدأ الأمل يتسرب إلى صوته:

- إن كُلَّ الأوْراق مع أمل، وتسْتطيع أن تَأخُذ منهَا مَا تَشَاء.

اِسْتأذنت منه لِلْخروج، وأخذتْ الأوْراق المطْلوبة من أمل. وَقلَّت لَهَا مُحاوِلا إِسْعادهَا:

- أَعرِف أن الوقْتَ غَيْر مُنَاسِب لِهَذا الخبر، ولكنِّي أريد أن أخبرك بِه لِإدْخَال بَعْض السَّعادة إِلى قَلبِك، إنه خبر يخصّني.

قَالَت بِلهْفة:

- هَيَّا أَخْبرَني بِسرْعة يَا يُوسُف، إن قَلبِي مُشْتاق إِلى السَّعادة.

قُلْت بِابْتسامة وَاسِعة:

- إن هُنَاك فَتَاة أرغَب فِي الارتباط بهَا، وَلقَد قابلت والدها لأطلبها للزواجِ، وَهُو ينتظركم لِإتْمَام الاتِّفاق.

ظَهرَت السَّعادة على وَجْه أُخْتِي، وقالت:

- يَجِب أن تَجلِس، وَتحكِي لِي التَّفاصيل، أُريد أن أَعرِف كُل شَيء.

قُلْت مُبْتسِمًا:

- إن اِسمهَا مريم، وَهِي الواحة اَلتِي وَصلتُ إِلَيْهَا أخيرًا بَعْد طُول تَرْحال فِي صَحْراء الدُّنْيَا، هِي من تُجْبِر خَواطِر الضُّعفاء والْمهْمومين، وَذَات القلْب الأبْيض اَلذِي يَحمِل الخيْر لِلْجمِيع، إن لَهَا رُوحًا صَافِية كَصَفاء ماء المطر، إنها أمنيتي اَلتِي تمنَّيْتُ أن تَتَحقَّق، وَرَفيقَة الدَّرْب اَلتِي أتمَنى أن أكمل عُمْرِي مَعهَا.

كَانَت أمل تَستَمِع إِلى كلماتي صَامِتة مُتَأملَة، وأحْيانًا يظهر الإعْجاب والانْدهاش معًا على ملامحهَا، ثُمَّ قَالَت بَعْد أن أنهَيت حَديثِي:

- لَقد أحْببْتهَا من كلماتك ووصْفك لَهَا يَا يُوسُف، إنّهَا صِفَات نَادِرة، هل بِالْفِعْل مَا زال هُنَاك أَشخَاص بِهَذه الصِّفَات؟!!

أجَبتهَا بِسرْعة:

- إن الخيْر مَوجُود فِي كُلِّ زَمَان وَمَكان، لَكِن عليْنَا أن نَبحَث جيّدًا لِكيْ نَجدَه.

اِبْتسَمتْ وقالت:

- هنيئًا لَك يَا يوسف . . . وهنيئًا لَهَا أيْضًا أنك سَتكُون رفيق درَّبهَا، أَوصَل لَهَا سَلامِي حَتَّى أراهَا.

قُلْت، وَأنَا أسْتَعدُّ لِلْمغادرة:

- بِالطَّبْع يَا أمل، وانْتظري مني خبرًا بِخصوص زَوجِك قريبًا.

لاحظتُ في عينيها نظرة تفاؤل ودّعتني بها،

ثُمَّ اِسْتأذنتهَا،

وذهبت فِي طَرِيقِي.

-٣٦-

مدير المستشفى الخيري

بِمجرَّد أن عُدْت،

ذَهبت إِلى مُسْتشْفَى الأطْفال اَلخيْرِي اَلتِي كُنْت مُتطوّعًا بِهَا، وطلبتُ مُقَابلَة مُديرهَا . . .

ومَا أن دَخلتُ غُرفَة مَكتَب مُدير المسْتشْفى اَلخيْرِي حَتَّى قام من خَلْف مَكتَبِه، واسْتقْبلني بِترْحَاب شديد.

تكلمتُ بِكلِّ جِدِّية قائلًا:

- أنَا أتيْتُ اليوْم من أَجْل أَمرَين هامَّيْنِ، أَولهما أَننِي سَوْف أَعُود لِلْعمل مُتطوِّعًا فِي المسْتشْفى إن سَمحَت بِذَلك . . .

قال مُقاطِعًا حدِيثي:

- بِالطَّبْع أَسمَح، وَأكُون سعيدًا بِهَذا، ومَا الأمْر الثَّاني؟

قلتُ مجيبًا:

- هُو عمل خَيرِي يَخُص زَوْج أُخْتِي، إنه يَحْتاج إلى عَمَليَّة جِراحِيَّة كَبِيرَة ومكلِّفة، ويحْتَاج إلى من يَتَكفَّل بِإجْرَاء هَذِه العمليَّة، حَيْث لَا يَتَوفَّر اَلْمال اللَّازم لِإجْرائهَا، فهل يُمْكِن أن نُسَاعدَه؟

قال بِجدِّيَّة، واهْتمام شديدَيْنِ:

- هل معك تقاريره الطِّبِّيَّة ومَا يَحْتاج إِلَيه من علاجٍ؟

أجبْتُ وَأنَا أُشير إلى الأوْراق اَلتِي بِيَدي:

- نَعم، إنها مَعِي.

قال بِنَفس الجدِّيَّة:

- أَعطِني إِيَّاهَا، سأتواصل مع عِدَّة مُسْتشْفيات خَيرِية، وَأرُد عليْك بَعْد قليل.

شكرته ثُمَّ خَرجَت من مَكتَبِه،

وجلست فِي غُرفَة الانْتظار.

-٣٧-

الفرج

اِنْتظَرْتُ، وَأنَا كُلِّي رَجَاء فِي أن أعُود بِحلٍّ لِمَرض جَمال، وأن أَستطِيع أن أسعده، وأسعد أمل.

كَانَت الدَّقائق تَمّر، ومعهَا كَانَت تَزْداد الأمْنيات فِي اِقتِراب الفرج، وأن الخيْر قد اِقترَب من أن يَدُق الأبْواب . . .

مضتْ سَاعَة، وَإذَا بِمدير المسْتشْفى قادمًا مُتَهلل الأسارير، وَهُو يَقُول:

- لَقد وافقت إحدى المسْتشْفيات اَلكُبرى فِي المدينة على عِلَاج زَوْج أُخْتِك مجَّانًا بِمَا يَشمَل إجرَاء العمليَّة الجراحيَّة، يُمْكِنه أن يَأتِي بَعْد يوْميْنِ لِإجْرَاء التَّحاليل الطِّبِّيَّة والْفحوصات اللَّازمة، وإجْرَاء العمليَّة الجراحيَّة فِي اليوْم اَلذِي يليه، سَأعطِيك عُنْوان المسْتشْفى، وَطرُق التَّواصل مع المسْئول هُنَاك.

شكرته بِحرارةٍ على اِهْتمامه وَجهده.

وخرجت من المستشفى، وَأنَا أَكَاد أطير من السَّعادة والْفرْحة . . .

تَواصلتُ مع أمل لِأخْبرهَا بِهَذا الخبر اَلسعِيد.

واتَّفقتُ مَعهَا على اَلقُدوم إلى المدينة، حَتَّى يَتِم إجرَاء الجراحة بِأسْرع وَقْت،

وشعرتُ بِسعادتهَا الغامرة، وَالتِي جَعَلتهَا هِي اَلأُخرى كأنهَا طَيْر يحلق فِي السَّمَاء،

وأحْسَسْتُ أَنهَا من فَرحتِها تَكَاد تَطوِي المسافات لِتعانقني اِمْتنانًا وشكْرًا.

-٣٨-

بيت عمار

خَرجتُ إلى اَلطرِيق قاصدًا بَيْت عَمَّار..

ووَصلتُ إلى بَيتِه . . .

إنه يَسكُن قريبًا جِدًّا من الملْعب اَلذِي كُنَّا نَلعَب بِه ونحْن صِغَار.

طَرقتُ بِخَجلٍ باب البيْتِ،

اِنْتظرتُ دَقائِق حَتَّى فَتْح اَلْباب أَبُو عَمَّار، وَقَال:

- أهْلا بِك يَا بُني.

اِبْتسمتُ اِبْتسامة خَفِيفَة، وَقلت بِودّ:

- أُريد أن أُقَابِل عَمَّار، هل هُو مَوجُود؟

طَأطَأ بِرأْسه حُزْنًا، وَقَال:

- إنه مَوجُود، وَلَكنَّه لَا يُريد اَلحدِيث مع أحد، أو مُقَابلَة أحد، حَتَّى أنه لَا يُحَدثنِي مَهمَا حاولت.

قُلْت محاولًا طمأنته:

- أنَا أَعلَم حالته جيّدًا، وأسْتطيع أن أُسَاعدَه، كُلُّ مَا أُريده منك أن تُدْخلَني إِلَيه.

رأيْتُ بريقًا من الأمل قد أطلَّ من عيْنيْه، وَقَال:

- فلتدَخل يَا بُني، رُبمَا كان قُدومك هُو اِسْتجابة دعواتي.

دخلْنَا إِلى البيْتِ،

ثُمَّ وصلْنَا إِلى غُرفَة عَمَّار . . .

طَرق أَبُو عَمَّار اَلْباب فلم أسْمع أيَّ رد،

فَمد يده وفتَح اَلْباب،

وَدَلفنَا معًا إِلى الدَّاخل.

-٣٩-

بريق الأمل

عِنْدمَا دَخلتُ اَلغُرفة رأيْتُ عَمَّار جالسًا على مَقعَد خَشبِي، ويبْدو عليْه الإجْهاد والشُّرود والْحزْن . . .

اِقْتربتُ منه قليلا، وَأنَا لَا أَستطِيع التَّكَهُّن بِرَدة فِعْلِه حِين يَرانِي، وَقلت:

- أهْلا عَمَّار، لَقد أتيْتُ لِزيارتك بعْدمَا سَألَت عَنْك بِمكان عملنَا، وعلمتُ أنك مريض.

لَم يتفوه عَمَّار بكلمة، وَبدَا كمَا لَو أنه لَم يَشعُر أصلًا بِوجودي، فكرَّرتْ كَلامِي مَرَّة أُخرَى إلى أن اِنتبَه، وظهرتْ علامَات الغضبِ على وَجهِه، وَقَال:

- مَا اَلذِي جاء بِك إلى هُنَا؟!! اِذْهب حالا، فَأنَا لَا أُريد أن أقَابِل أحدًا.

ثُمَّ أَشَار بِيَده إلى باب اَلغُرفة.

قُلْت راجيًا أن يسْمعَني:

- فقط أَعطِني الفُرصَة واسْمعْني، لعلّي أحمِل أخْبارًا سَعِيدَة لَك، ولعلّي أصْلِح مَا أفسَدت يوْمًا، فقط أعطِني دَقائِق من وَقتِك، وَبَعدهَا سأذْهب فوْرًا.

هُنَا تَدخُّل أَبُو عَمَّار أيْضًا قائلا:

- اِستمَع إِلَيه يَا وَلدِي، رُبمَا يَكُون فِعْلا لَديْه الأخْبار اَلتِي تُسْعِدك.

هدأ عَمَّار قليلا، وَنظَر إلى الأرْض فِي شُرُودٍ، فبدأتُ حَديثِي قائلا:

- أوَّلا أودُّ أن تَقبَل اِعْتذاري، فَلقَد تَغيرتُ كثيرًا، وندمْتُ على كُلّ مَا سبق، تَقبّل اِعْتذاري عن كُلّ كَلمَة قلتهَا لَك ولم أَكُن أعنِيها حقًّا، وعن كُلّ تَصرُّف أَحمَق فعلته، فأنَا أشعُر بِالنَّدم اَلشدِيد، وأريدك من اليوْم أن تَكُون أَخِي فِي الحيَاة وَفِي العمل، وَأعدك أنه لَن تَتَكرَّر مِثْل تِلْك الأفْعال مَرَّة أُخرَى.

نظر عَمَّار نظْرته الشَّاردة، ولم يَنطِق بِكلمة واحدة، فَأكملتُ حَديثِي:

- لَقد عَلمتُ أنك تَدرُس عِلْم البرْمجة، وَأنك تَسعَى لِلْعمل فِي هذَا المجَال، أهذَا صحيح يَا عَمَّار؟

لَم يرد عَمَّار أيْضًا،

فَأكملت حَديثِي مُتجاهلا صَمته، وَراغِبا فِي أن أحَفزه، وأضيء نُور الأمل بِداخِله:

- لَقد تَكلمتُ مع المهنْدس (أَشرف) - مُدير إدَارَة تِقْنيَّة المعْلومات بِالشَّركة – وَلقَد وَافَق على أن يَقُوم بِإشْراكك فِي بَعْض دَوْرات البرْمجة اَلتِي يَقُوم بِتدْريسهَا.

بَدأَت بَعْض مَظاهِر الاهْتمام تَبدُو على وَجْه عَمَّار عِنْدمَا رفع وَجهُه وَقَال:

- هل هذَا هُو المهنْدس أَشرف صَاحِب أَشهر بَرامِج الأعْمال والتَّحْليل الماليِّ بِالشَّركة؟

قلت مُشَجعا:

- نَعم، إنه هُو، وَلقَد وَافَق أيْضًا بَعْد أن يَختبِرك أن يقبلك لِلْعمل كفنِّيِّ بَرمجَة بِإدارة تِقْنيَّة المعْلومات، وأن يُسَاعدَك على الالْتحاق بِإحْدى الكلِّيَّات المتخصِّصة بِالْبرْمجة، وَالتِي ستساعدك مُسْتقْبلا فِي أن تَكُون مُهنْدِس برْمجيَّات بِالشَّركة بَعْد إنهَاء دِراسَتك، فمَا رَأيُك يَا عَمَّار؟

تَهللت أَسارِير عَمَّار أخيرًا، وَقَال:

- إنه حُلْم عُمْرِي، شُكْرًا لَك أُسْتاذ يُوسُف.

قُلْت مُبْتسِمًا:

- وَلكِن لِي شَرْط وَاحِد.

قال عَمَّار:

- مَا هُو؟

أجبته بِنَفس الابْتسامة:

- أن تَقبل اِعْتذاري عن كُلِّ مَا سبق.

نظر عَمَّار إِلى الأرْض حياءًا، وَقَال:

- يَكفِي مَا فَعلته الآن أُسْتاذ يوسف.

أكملت قائلا:

- وَلِي شَرْط آخر، هُو أن نظلَّ إِخْوَة إِلى الأبد.

وَقْف عَمَّار، وعانقني سعيدًا.

عِنْدهَا لَمحت دُمُوع السَّعادة اَلتِي سَقطَت على وَجْه أبيه، وَالذِي نظر تُجَاهِي وَقَال:

- شُكْرًا لَك يَا بُني، لَقد قُمْت بِعَمل رَائِع!

اِبْتسمت مَرَّة أُخرَى، وَقلت:

- هل تَتَذكَّر الفتى اَلصغِير اَلذِي حمْلته على كَتفِك مُصَابا إِلى المسْتشْفى اَلقرِيب من هُنَا.

نظر إِلى سَقْف اَلغُرفة مُفَكرا لِدقيقة، ثُمَّ قال:

- نعم أَتذكر، إنه أَنْت ذَلِك الولد!!

نَظرتُ إِلَيه مُمْتنًّا، وَقلت:

- إن هذَا اَلمعروف دينًا لَا يرد، ومهْمَا فَعلت فلن يُسَاوِي حملُك لِي على كَتفِك.

ثُمَّ أكملت:

- وهل جَزَاء الْإحسان إِلَّا الْإحسان يَا وَالدِي.

اِبتسَم أَبُو عَمَّار وَقَال:

- رَحِم اَللَّه والدك، إنك تَتَحدَّث مَثلَه تمامًا.

اقتربت منه، وَقلت:

- إنك أَيْضًا وَالدِي، واسْمح لِي أن يَكُون عَمَّار أَخِي، وأن يُصْبِح هذَا بَيتِي، وأن أزورَكم بانتظام.

قال مُبْتسِمًا:

- على الرحب والسَّعة فِي كُلِّ وَقْت.

شكرته،

واسْتأْذنت منهمَا،

ثُمَّ اِنْصرَفْتُ سعيدًا،

فَلقَد أتمَمت أمْرًا آخر بِنجاح اليوْم.

-٤٠-

اتصال مسعد

عُدتُ إِلى مَنزِلِي مُتْعبًا،
وَتَذكرتُ تِلْك الورَقة اَلتِي أَعطُوني إِيَّاهَا فِي هابينيسيا،
فَقُمتُ بِإِحْضارهَا.
أَمْسكتهَا بِيَدي، وَقلت:

- إن تِلْك الورَقة هِي اَلدلِيل اَلوحِيد على أَنني لَم أَكُن أَحلُم، وأن زِيارَتي لِمدينة السَّعادة كَانَت زِيارة حَقيقِية، وَلكِن هل كان يُمْكِن أن تَتَغيَّر تصرُّفاتي دُون ذَهابِي إِلى مدينة السعادة؟! هل كُنْت أَستطِيع أن أغيّر من طَرِيقَة تفْكيري وَمن تعامَلي دون حدوث هَذِه التَّجْربة؟!

كُنْت أَتَساءَل، وَأنَا أفحَص الورَقة، لَقد كَانَت بِهَا خَانَة لِلتَّواصل مع إدارة هابينيسيا، وَأُخرَى لِكتابة اِسْم من أُريد أن أدعوه لِزيارة المدينة.
وَفِي الوجْه الآخر من الورَقة كُتب أن حَالَة خُروجي من المدينة كَانَت مُمتازَة، كمَا كتب أيْضًا معلومات عن مريم وَعَمار، ووضعت إِشارَات خَضْراء وَكتب بِجوار اِسْميْهمَا عِبارة "خرج من ظَلَام اَلقُنوط"، فشعرت بِالسَّعادة، وَتَأكدَت أن عَمَّار أيْضًا قد خرج من هذَا الظَّلَام.

كُنْت مُتْعبًا،

ولكنّي تَذكرتُ صَديقِي مُسعَد اَلذِي أَرَاد أن أبحَث لَه عن عمل.

كان الوقت قد تأخر واقترب من منتصفِ الليل، فَأمسكت بِهاتِفي، واتَّصلتُ بِه مُتمنِّيًا أن يُجيب.

مَرَّت ثَوَان قَلِيلَة، ثُمَّ جاء صَوْت مُسعَد من الطَّرف الآخر، وَهُو يَقُول:

- أهْلا يُوسف.

بادلته اَلتحِية، ثُمَّ قُلْت:

- أُعْذرني على اِتِّصالي بِك فِي هذَا الوقْتِ المتأخِّر.

أجَاب مُسعَد:

- - لَا عليْك، أنَا اِعتدت السَّهر قليلا هَذِه الأيَّام لِتصفُّح الإنْترْنت، والْبَحْث عن وَظِيفَة مُنَاسبَة.

قُلْت سريعا:

- هل يُمْكِن أن تُخْبرَني لِماذَا تَركت وظيفَتك السَّابقة؟ لَعلَّ هذَا يُساعدني على أن أَجِد وَظِيفَة لَك.

قال بِهدوء:

- لَقد رَفضتُ القيَام بِإمْدَاد مُدير اَلشرِكة بِحسابات وَهمِية لِإعْطائهَا لِصاحِبة اَلشرِكة وَهِي زوْجته، فَقَام بِفصْلي عن العمل.

اِبْتسَمْتُ، وَقُلت:

- أنَا أَعرِفك مُنْذ صِغرنَا، دائمًا لَا تَقُوم بِأيِّ عمل يُخَالِف ضميرك.

قال:

- لَا فَائِدة من الكَذِب، مَا يَنفَع الإنْسان هُو سِيرته الحسَنة وعمله الطَّيِّب.

قلت بِجدِّيَّة:

- هل يُمْكِن أن تُرْسِل لِي سِيرتك الذَّاتيَّة؟

رد مسعد:

- بِالطَّبْع، وَأنَا أُدين لَك بِاعْتذار أيْضًا.

لَم أستَطع اَلرَّد على كلماته لِأَني لَم أَفهَم مَا يقْصده،

لِذَا فقد أكمِل دُون اِنتِظار ردي:

- لَقد اِعْتقدت أنك تَجَاهلَت طَلبِي، وَلَكنَّك بِاتِّصالك هذَا فَإنك تُريد أن تُساعدني بِجدِّيَّة، وَلِهذَا فاقْبل اِعْتذاري.

اِبْتسمت لِأَني أَعلَم أنه رُبمَا كان قَولُه يُعبِّر عن حَقِيقَة مَوقفِي حِين اِتَّصل بِي أَوَّل مَرَّة، ولكنِّي الآن سأسْعى بِالْفِعْل فِي مُساعدته فَقُلت:

- لَا يُوجَد بيْننَا أيُّ اِعتِذار، فنحْن أَصدِقاء، فقط أَرسَل سِيرتك الذَّاتيَّة وانْتَظر مني خبرًا.

ثُمَّ تبادلْنَا اَلتحِية،

وذهبتْ إِلى سَرِيرِي لِأنام قرير العيْنِ حَتَّى الصَّبَاح.

-٤١-

حوار مع مريم

اِسْتيْقظتُ كعادَتي فِي السَّاعة السَّابعة على صَوْت رنين مُنبهِي،
اِسْتيْقظتُ سعيدًا شاكرًا على هذَا الصَّبَاح اَلجدِيد، والْفرْصة الجديدة لِلْعمل والاجْتهاد وإسْعَاد النَّاس.
ذَهبتُ إِلى مقرِّ عَملِي،
لَأجِد أن خبر طلبِي الارتباط بمريم، وموافقة أَبِيهَا قد اِنتشَر بَيْن الزُّملاء والزَّميلات، وَالذِين قَامُوا بِالتَّجمُّع لِتهْنئتنَا.
ومَا أن ذهب اَلجمِيع حَتَّى التفَتت مَريم نحوِي قَائِلة:

- شُكْرًا لَك يا يُوسُف، لَقد تَغيرَت حَالَتِي النَّفْسيَّة تمامًا.

وَقفتُ صامتًا لِلحْظة، ثُمَّ قلتُ مُتعجِّبًا:

- هل أَنْت من تشْكرينني؟!! إن لَكِ دُيونًا عليَّ لَا تُعَد ولَا تُحصَى: فَلقَد أدْخلتني إِلى عَالم التَّطَوُّع، وعرفت مَعنَى العطَاء وَعمَل الخيْر على يديكِ، ثُمَّ دعوتني إِلى رِحْلَة هابينيسيا من أَجْل إِرْشادي لِطريق السَّعادة، ثُمَّ تَنازلتِ عن حَقِّك فِي دَعوَة أيِّ شَخْص آخر لَتنْقذيني عِنْدمَا سقطتُ في ظَلَام اَلقُنوط، بل أنكِ لَم تُفَكرِي إِطْلاقًا وَقُمتِ بِإنْقاذي فَوْر سُقوطي.

ثُمَّ أَكملت حديثي قائلا:

- أتعْلمين لِماذَا لَم أَتقَدم بِطلبي لِلقاء أبيكِ من قبل؟

قَالَت بِاهْتمام:

- لِماذا؟

قُلْت، وَأنَا أَنظُر بعيدًا:

- لِأَني كُنْت أَشعُر أَننِي غَيْر لَائِق بِكِ، وكانتْ أفْعالي وكلماتي لَا تليق بارتباطنا، لَقد كُنْت أَشعُر أن الخيْر مَوجُود بِداخِلي وَلكِن لَا أَستطِيع أن أُعبّر عَنْه من خِلَال كلماتي وأفْعالي.

قَالَت مَريم، وَهي تُحَاوِل التَّخْفيف عَنِّي:

- وَلكِن يكْفيك شُعورك بِالذَّنْب عن كُلِّ كَلمَة أو فِعْل يَصدُر منك وَهُو لَا يُعبّر عَمَّا بِداخِلك من خَيْر.

قُلْت مُقاطِعًا:

- لَا، لَا يَكفِي هذَا، كان يَجِب أن أَتغير، وزيارة هابينيسيا قد أَخرَجت الخيْر الموْجود بِداخِلي لِيكون ظاهرًا فِي كلماتي وأفْعالي، لَا يَكفِي الإنْسان أن يَحمِل الخيْر بِداخِله، وَلكِن يَجِب أن يُظْهِر هذَا الخيْر فِي كُلِّ حَياتِه، وَيجِب أن يَحيَا سعيدًا وَيسعد من حَولِه.

قَالَت وَهِي تَهُز رأْسهَا اِقْتناعًا بِكلامي:

- كلامك كُله صحيح، إن تَجرِبة الإقامة فِي هابينيسيا هِي تَجرِبة فَرِيدَة، وَلَكنهَا يُمْكِن أن تَتَحقَّق أيْضًا خارجَهَا، فاقْتناعك بِخَطأ أفْعالك وندمك عليْهَا هِي بِداية التَّغْيير لِلْأفْضل، وَهُو أَوَّل اَلطرِيق

إلى حَيَاة سَعِيدَة حَقيقِية، بعْدهَا يَتَحوَّل هذَا الإدْراك والْوَعْي لِأفْعالنَا الخاطئة إلى تصرُّفَات وأعْمَال تَصب فِي مَصْلَحة الخيْر الموْجود بِداخلنَا، ثُمَّ نَتَعوَّد على هَذِه الأفْعال وتتغَيَّر الحيَاة لِلْأفْضل.

قُلْت، وَأنَا أَنظُر نحْوهَا:

- أَلَا يُمْكِن أن نُسَاعِد بَعْض النَّاس لِلْوصول لِلسَّعادة معًا؟

اِبْتسَمتْ قَائِلة:

- بِالطَّبْع سنفْعل، وَأنَا لَديَّ سُؤَال لَك يَا يُوسُف.

ثُمَّ أكمَلت:

- هل يُمْكِن أن نَفتَرِق أو يَنتَهِي طريقَنَا معًا؟

أجبْتُ مُبَاشرَة دُون تَردَّد:

- لَن يَنتَهِي أبدًا، لِأنك أَنْت اَلطرِيق يَا مريم.

-٤٢-

وظيفة مسعد

بَعْد أن أَنهَيت حَديثِي مع مريم،

ذَهبتُ إِلى إدارة الموارد البشريَّة لِأسْألهم إِن كَانَت هُنَاك وَظِيفَة مُنَاسبَة لِصديقي اَلقدِيم مُسعَد.

قابلتُ اَلمدِير المسْئول، وَالذِي أَخْبرَني بِعَدم وُجُود أيِّ وَظِيفَة شَاغِرة تُنَاسِب مُسعَد بِالشَّركة.

ظهر اَلحُزن على مَلامِحي، ولكني شكرَتْه وتأهبت للانصراف،

وَعندما لاحظ المدير الحزن المرتسم على وجهي، أوْقفَني قائلا:

- هل يهمك أَمره؟

أجبْتُ بِلهْفة وَرَجاء:

- نَعم، يَهمني أَمره جِدًّا.

قال مُتسائلا:

- هل خِبْرته كَبِيرَة فِي مَجَال المحاسبة؟

أجبته بثقة:

- نَعم، إن خِبْرته كَبِيرَة.

قال مُفَسرا سُؤَاله:

- لَقد تلقَّيْتُ اِتِّصالا من زميل بِشركة أخرَى يَسأَل عن شَخْص بِهَذه المؤهِّلات والْخبْرات مُنْذ يوْميْن، وَلقَد اِعْتذرت لَه وقْتهَا عن عدم وُجُود أيِّ ترْشيحات لَديَّ، وَلكِن الآن يُوجَد، مَا رَأيُك أن نُرْسِل السِّيرة الذَّاتيَّة لِمسْعد لَه؟

قلت مُشَجعا:

- إنها فِكْرَة رَائِعة، فَلتُرسل لَه السِّيرة الذَّاتيَّة، ولتَّخبرْني ردّه.

قال بِابْتسامة هَادِئة:

- سأرْسلهَا لَه حالا، ثُمَّ أعلمك ردّه.

شكرته بحرارة، وذهبتُ إِلى مَكتَبِي.

وَمرَّت فقط بِضْع دَقائِق،

وَإِذَا بِي أَجِد رِسالة من مُدير الموارد البشريَّة يُبَشرنِي فِيهَا أن زَمِيلَه قد أعجب كثيرًا بِالسِّيرة الذَّاتيَّة لِمسْعد، وَأنه قد حَدَّد لَه مُقَابلَة شَخصِية من أَجْل توْظيفه بِالشَّركة، وأعْطاني رَقْم هَاتِف وعنْوَان اَلشرِكة وَموعِد المقابلة.

وَأنَا على الفور، وَبكُل سَعادَة أَرسلتُ تِلْك المعْلومات إِلى مُسعَد مُتمنِّيًا لَه التَّوْفيق،

وَراجِيا منه أن يمدنِي بِنتيجة المقابلة.

-٤٣-

جمال

كُنْتُ فِي اِسْتقْبال أمل وَجمال فِي اَلمنْزِل،

وقد سعدْتُ جِدًّا بِحضورهمَا.

ساعدتُ جمال ليرقد مرتاحًا على الأريكة الموجودة بردهة المنزل،

وجلستُ مع أخْتِي أمامه حَوْل سفرتنا القديمة كمَا كان يَحدُث بِالْماضي.

تَنهدَت أمل، ثُمَّ قَالَت:

- كَأنني لَمّ أترُك هذَا البيْتِ قطُّ، إنه بِنَفس تفاصيله القديمة.

قُلْت مُؤْكدا كَلامها:

- لَقد تَعمدت ألَّا أغيّر شيْئًا فِي اَلمنْزِل حَتَّى الآن، لِأحْتَفظ بِكلِّ الذِّكْريات الجميلة.

وابْتسمتُ، وَأكملتُ كَلامِي:

- إلَّا لَو أرادتْ مَريم التَّغْيير.

اِبْتسَمتْ أمل أيضا اِبْتسامة وَاسِعة، وقالت:

- إن من حَقها التَّغْيير، وَلكِن يَجِب ألَّا تَنسَى أن مَعهَا أفضَل زَوج فِي العالم.

قلتُ مبتسمًا:

- بالطبع، فقد ربّتني أفضلُ أمٍّ وأختٍ في العالم.

ثمّ اعْتدلت فِي جلْستي، وَقلت مُوَجها حَديثِي لَهَا ولزوْجهَا:

- يَجِب أن تسْتريحَا جيّدًا اليوْم، لِأننَا غدًا سَوْف نَذهَب لِلْمسْتشْفى لِإجْرَاء الفحوصات والتَّحاليل اللَّازمة لِلتَّحْضير لِإجْرَاء العمليَّة الجراحيَّة بَعْد غد.

قال جمال:

- إن تَصرفَك هذَا دين كبير علينا يَا يُوسُف.

رددتُ بسرعة:

- هذا الكلام يجب أن أقوله أنا لكما، إن دُيُونَكما لَا أَستطِيع رَدهَا.

ثم أردفتُ:

- وهل جَزَاء الْإِحْسان إِلَّا الْإِحْسان!

نظر نَظرَة اِمتِنان وَسَعادَة،

ثُمَّ ساعدتْهمَا لِلْوصول إِلى غُرْفتهمَا.

-٤٤-

أحداث سعيدة

تَوالَت الأحْداث السَّعيدة عليْنَا خِلَال الأيَّام القليلة التَّالية لِقدوم أمل وَجَمال إِلى مَنزلِي،

فقد أَكمَل جمال كُل الفحوصات والتَّحاليل المطْلوبة، وَكُل نتائجهَا كَانَت طَبيعِية،

وتمَّ إِجرَاء الجراحة لَه فِي اليوْم التَّالي على يد أحد أَفضل الأطبَّاء فِي هذَا المجَال، وَالذِي أَجرَى الجراحة مُتطوّعًا.

وقد غَمرتْنِي السَّعادة الشَّديدة عِنْدمَا جاء اَلطبِيب، وأخْبرنَا بِنجاح الجراحة، وَبأَن حَالَة جَمَال الصِحّيَّة أَصبَحت مُمتازَة لِلْغاية، وَأنه لَا حَاجَة لِبَتر قَدمه على الإطْلاق.

كمَا أخْبرَنَا أيْضًا أنه يُمْكِن أن يَمشِي خِلَال أُسْبوعيْنِ بِاسْتخْدام عُكَّاز طِبّيٍّ، وَأنه بَعْد إنهَاء برْنامج كَامِل لِلْعلَاج الطَّبيعيّ والتَّأْهيليّ سَوْف يَتَمكَّن من السَّيْر مُجَددا بِصورة طَبيعِية خِلَال سِتَّة أشهُر.

كُنَّا نَستَمِع إلى اَلطبِيب، وَنَكاد أن نطير من السَّعادة،

كَانَت الفرْحة تَغمُرنا أنَا وَأختِي...

فِي البداية لَم أَنتَبه إلى رَدَّة فِعْلهَا، وَلكِن مَا أن نظرت إلِيْهَا حَتَّى لَاحظت دُمُوع الفرْحة فِي عُيونِهَا...

شَعرتُ عِنْدهَا بِانْشراح فِي الصَّدْر لَم أَشعُر بِه من قَبْل...

شَعرت بِالسَّعادة الحقيقيَّة، وسألتْ نَفسِي: هل يُمْكِن لِمثْل هذَا العمل اَلبسِيط اَلذِي قُمْت بِه أن يهدِي أُخْتِي كُلَّ هَذِه السَّعادة والْفَرح؟ هل حقًّا يُمْكِن أن نُهْدِي بَعضنا السَّعادة ونتْشارْكهَا معًا؟ هل حقًّا أن سُبُل السَّعادة كَثِيرَة وهناك طُرُق يَسِيرَة لَهَا وَلَكننا نَبخَل على أَنفسِنا وَعلَى بعْضنَا وَمن حوْلنَا أن نَسلُكها أو نَقُوم بِهَا؟! مَاذَا لَو تشاركنَا السَّعادة واجْتَهد كُلٌّ منا وَعمِل لِيسْعد نَفسَه وَمن حَوَّله، أَلِن تَنتَشِر السَّعادة؟

إن لَدى اِعْتقادًا كبيرًا يُمْكِن أن يَكُون يقينًا أن السَّعادة مُعْدِية، إنها يُمْكِن أن تَنتَشِر بَيْن النَّاس بِسهولة، وأننَا فقط يَجِب أن نُؤْمن بِقدْرتنَا لِلْوصول لِلسَّعادة، وأن السَّعادة هِي بِيدنَا وليْس بِيد ظُروفِنَا.

بعدها بِأيَّام، كُنْت أَجلِس على مَكتَبِي صباحًا عِنْدمَا تلقَّيْتُ اِتِّصالا من مُسعد، مَا أن رَددت عليْه حَتَّى سمْعته يَقُول:

- أَلن تقدم لِي التَّهْنئة يَا يُوسُف؟

قلت بِسرْعة:

- مُبَارَك يَا مُسعَد، أَخْبرَني، هل تمَّ توْظيفك؟

ضَحِك مُسعد، وَقَال:

- بل أنَا الآن فِي مقرّ العمل أُبَاشِر وظيفَتي.

قُلْت مُعاتِبًا:

- ولماذَا لَم تُخْبرْني بِنجاح المقابلة وانْتظرت حَتَّى الآن؟

قال:

- لَقد أردْتُ أن أحدثَك من مقرّ العمل، حَتَّى تَكُون أَكثَر سَعادَة، أنَا سعيد جِدًّا بِهَذه الوظيفة، إنهَا شَركَة رَائِعة وَجَديدَة تَعمَل بِاحْترافيَّة شَدِيدَة، ومَا زال لَديهِم اَلعدِيد من الوظائف الشَّاغرة، لَا أَستطِيع مَهمَا فَعلت أن أَشكُرك يَا يُوسُف.

تَذكرت يَاسِر ذَلِك الرَّجل اَلذِي قابلته أَمَام المتْجر، وأنّه مَا زال يَبحَث عن عمل، فَقُلت:

- نَحْن أَصدِقاء يَا مُسعَد، أَتمَنى لَك التَّوْفيق فِي عَملِك اَلجدِيد، وَلكِن إِذَا أردت أن تَقُوم بِشَيء يُسْعدني فهناك مَا يُمْكِنك أن تَقُوم بِه.

ردّ مُسعَد سريعًا:

- بِالطَّبْع أريد أن أَقُوم بِأيّ شَيْء يُسْعِدك، فقط أَخْبرَني بِه.

قُلْت راجيًا:

- إن هَذِه الخدْمة لِشَخص مُقرَّب منّي، وَهُو ذُو كَفاءَة وَخِبرَة، وَكَان يَعمَل مَسئُولا لِلْعلاقات العامَّة بِأَحد الشَّركات، وَهُو مُنْذ فَترَة يَبحَث عن وَظِيفَة بِنَفس اَلمُسمى، فهل يُمْكِن أن تُسَاعدَه؟

قال بِتفهُّم:

- إنه أَمْر بسيط، فَكمَا قَلَّت لَك هُنَاك اَلعدِيد من الوظائف الشَّاغرة بِالشَّركة، ويمْكنني أن أَتكَلم مع مَسئُولي الموارد البشريَّة عن إِمْكانيَّة توْظيفه، كمَا أَنهُم يبْحثون بِشدَّة عن الخبْرات وَذلِك لِدَعم اَلشرِكة.

قلت:

- رَائِع، سَوْف أرْسِل لَك سِيرته الذَّاتيَّة حالا.

اِتَّفقْنَا على هذَا، وَقُمت بِالتَّواصل مع يَاسِر لِإرْسَال سِيرته الذَّاتيَّة لِلْعمل على إِيجَاد وَظِيفَة مُنَاسبَة لَه،

ولم تَمُر دَقائِق حَتَّى وَصلتْنِي سِيرته الذَّاتيَّة، وَالتِي بِدوْري أرسلتهَا إِلى مُسعَد.

فِي اليوْم التَّالي صباحًا، تلقَّيْتُ اِتِّصالا جديدًا من مُسعَد حَيْث أَخْبرَني بِتحْدِيد مَوعِد المقابلة الشَّخْصيَّة لِياسر وأَخْبرني بِأن سِيرته الذَّاتيَّة مُنَاسبَة جِدًّا لِلشَّرِكة، وأنهم بِحاجة لِخبْراته، وأن إِمْكانيَّة توْظيفه مُرتفعَة.

سعدْتُ بِهَذه الأخْبار، وَأرسلت عُنْوان اَلشرِكة والْموْعد إلى يَاسِر، وَالذِي بِدوْره أرسَل لِي عِدَّة رَسائِل يَشكُرني فِيهَا، وأخْبرني أنه سَوْف يَذهَب لِلْمقابلة.

-٤٥-

الأيام التالية

مضتْ الأيَّام التَّالية سريعًا.

كُنْت أتَواصَل مع أمل يوْميًّا لَأعرِف تَطوُّر حَالَة زوْجهَا جَمَال، وَالذِي كَانَت تَتَحسَّن حالته الصِّحِّيَّة بِصورة مُسْتمِرَّة، وأصْبح يَمشِي بِمساعدة عُكَّاز طِبِّيّ.

كَانَت أمل شَدِيدَة السَّعادة لِهَذا التَّحَسُّن، وَلَكنهَا أيْضًا لَم تَخِف عَنِّي أن اِهْتمامي بِهَا، وتواصلي المسْتمر مَعهَا، وتغيُّري إلى الأفْضل يزيدهَا سَعادَة...

نعم لَقد تَغيرت، وَتَعلمت أننَا بِرَغم مشاغلنَا، ومع كُلِّ صُعوبَات الحيَاة حوْلنَا، فَإن هُنَاك أشخاصًا لَا يُمْكِن أن نَتَأخَّر عَنهُم...

لَقد عَلمت أننَا يَجِب أن نَكُون سندًا لِبعْضِنَا، وأن نُهوِّن طريق الحيَاة الشَّاقّ بِدفْء قُلوبِنَا وصدْق مشاعرنَا.

لَقد ذَهبت مع أمل وَجَمال بعدها بِأيَّام لِإتْمَام الاتِّفاق مع وَالِد مَريَم،

وَكَان يوْمًا سعيدًا حدَّدْنَا خِلاله مَوعِد إِعلَان اَلخُطبة وكان بعد شهرٍ كمَا اِتَّفقْنَا سابقًا.

-٤٦-

ياسر

كُنْت أَجلِس فِي مَنزلِي فِي نِهاية أحد أَيَّام العمل الطَّويلة، وَإِذَا بِطرقَات خَفِيفَة على اَلْباب،

وعنْدَمَا فَتحت اَلْباب، وَجدَت مُفَاجأَة صَغِيرَة،

لَقد كان يَاسِر وأوْلاده هُم من يَطرُقون بَابِي.

كَانُوا يَقفُون أَمَامي، وَهُم يبْتسمون ويحملون اَلوُرود،

سعدْتُ لِرؤْيتهم، وبادلتهم الابْتسام، وأدْخلتهم بِسعادة إِلى اَلمنْزِل قائلا:

- أهْلا بِكم، مَا هَذِه المفاجأة الجميلة الرَّائعة.

أَشرت لَهُم بِالْجلوس، فجلسوا.

بدأ يَاسِر اَلحدِيث قائلا:

- نَعتَذِر عن اَلحُضور دُون مَوعِد، وَلكِن أوْلادي أصرُّوا على ذَلِك.

قُلْت بِهدوء:

- إنه بَيتكم أيْضًا، مَرْحَبا بِكم فِي كُلّ وَقْت.

قال يَاسِر:

- إننا سُعَداء وممْتنُّون من أَجْل وظيفَتيْ الجديدة، لَقد صَرفُوا لِي رَاتِب الأيَّام اَلتِي عملتهَا، وَلقَّد رَغِب أوْلادي أن يُهْدُوك هَذِه اَلوُرود من أوَّل رَاتِب لِي.

تَهللَت أساريري، وَقلت سعيدًا:

- هذَا خبر سار بِالنِّسْبة لِي، إن هَذِه المشاعر تُسْعدني كثيرًا يَا أَولَاد، شُكْرًا لَكُم على تِلْك اَلوُرود الرَّائعة الجميلة.

قال ياسر مُبْتسِمًا:

- إنه شَيْء بسيط جِدًّا يُعبِّر عن شُكْرِنا، سُبْحان من أرسَلك إِلَيْنَا، ووضْعك فِي طَريقِنا.

قلت:

- المهم أن تُحَافِظ على وظيفَتك، وأن تظلَّ سعيدًا أَنْت وأسْرَتك.

وَعدت لِأوْجه حَديثِي إِلى الأوْلاد قائلا:

- مَاذَا تُريدون أن تَأكُلوا من الحلْوى؟

ردُّوا جميعًا فِي صَوْت وَاحِد:

- الشُّوكولاتة.

قُمْت وَأحضِرت لَهُم الشُّوكولاتة . . .

وَتَذكرت كم كَانَت الشُّوكولاتة مَصدر لِلسَّعادة لِكثير من النَّاس فِي مَدِينَة هابينيسيا عِنْدمَا كُنْت أوزعهَا عَليهِم.

وَقُلت لِنفْسي لَم لَا أَقُوم بِهَذا هُنَا؟

وعزمت على القيَام بِهَذا الأمْر فِي مقرّ عَملِي.

-٤٧-

الشوكولاتة

اشْتريتُ كَميَّة كَبِيرَة من الشُّوكولاتة لَيْلا، بعْدمَا وَدعت يَاسِر وأسْرَته وأوصلتهم إِلى أَوَّل الشَّارع اَلذِي أَسكَن بِه.

كُنْت عائدًا لَيْلا، وَمعِي الشُّوكولاتة،

ورأيْتُ عِدَّة أَطفَال يلْعبون أَمَام مَنزلِي، وَكُنت أعرِفهم جميعًا لِأنهم أَبنَاء جِيراني.

أَلقَيت السَّلَام عَليهِم،

وَأَخرجت عددًا من قَوالِب الشُّوكولاتة يُمَاثِل عَددهم، ووزَّعتْهَا عَليهِم.

ظَهرَت السَّعادة على وُجوهِهم جميعًا،

بل إنني أخطَأت ونسيتُ أحد الأطْفال، وَالذِي جاء لِيعاتبني، فابْتسمتُ، ووضعتُ فِي يَدِه قالبًا من الشُّوكولاتة، فَعَاد سعيدًا إِلى بَاقِي الأطْفال.

ثُمَّ صَعدتُ إِلى مَنزلِي.

فِي اليوْم التَّالي أخذتُ بَاقِي الشُّوكولاتة مَعِي إِلى مقر عَملِي، ومَا أن وصلت، حَتَّى بدأتُ بِتوْزيعهَا على اَلجمِيع،

وكم لَاحظت السَّعادة فِي عُيُون اَلعدِيد من الزُّملاء،

وقد سَأَلَنِي بَعضهم عن المناسبة السَّعيدة اَلتِي من أَجلِها أَقُوم بِتوْزِيع الشُّوكولاتة، فأجبْتُ:

- إنها فقط من أَجْل سعادتكم.

قابلت عَمَّار اَلذِي أصبَح فنِّيًّا فِي إدارة تِقْنيَّة المعْلومات، وقد أخذ مني الشُّوكولاتة سعيدًا، وَلقَد أسْعدَني جِدًّا نجاحه، وتمنَّيْتُ لَه التَّوْفيق، وَقلتُ مهنئا:

- مُبَارَك لَك نَجاحك يَا عَمَّار، وَلكِن هل سامحتْني بِالْفِعْل؟

قال عَمَّار:

- إنك أَخِي، وستظلُّ دوْمًا أخي، إنِّي أَشعُر كأَنِّي وُلدت من جديد بعْدمَا زُرْتني فِي مَنزلِي.

أعْطيْته قَالَبا آخرا من الشُوكولاتة، وَقلت:

- أمّا هَذِه القطْعة فهي لِوالِدك، وَأَخبره أَنهَا من اِبْنِه الثَّاني يُوسف.

شَكرَنِي عَمَّار،

وَكانت ردود أفعالِ زملائي متباينةً تجاه مبادرتي بتوزيعِ الشوكولاتة من أجلِ سعادتِهم، كَان بَعْض الزُّملاء يَبدُو عَليهِم الدَّهْشة، والْبَعْض الآخر يَبدُو عَليهِم الإعْجاب،

وَكَان من ضِمْن هؤلاء الَّذين بدَا عَليهِم الإعْجاب مريم، وَالتِي اِقْترَبت مني، وقالت:

- إن مَا تَفعلُه رَائِع، إنه من أَعمَال الخيْر اَلتِي تَقرَّب النَّاس من بعْضهَا وَتفتح اَلقُلوب، إنني مُعجَبَة جِدًّا بِهَذا العمل.

قُلْت مُبْتسِمًا:

- لَقد وشتْ بِكِ نظراتك، ووصلَني إِعْجابكِ لِأَنه وَاضِح فِي مَلامِحكِ.

اِبْتسَمتْ، وقالتْ:

- بِالطَّبْع، لَقد أَصبَحت خبيرًا فِي نَظَرات النِّسَاء.

اِتسعَت اِبْتسامتي، وَقلت:

- أبدًا، إننِي خبير فِي نَظَرات مَريَم فقط.

-٤٨-

السعادة معدية

أَنهيتُ عَمِلِي،

وانْصرفْتُ كعادَتي أَقصِد مَنزِلِي،

وعنْدَمَا وَصلت الشَّارع اَلذِي أَسكَن فِيه، وَجدتُ أحد الجيران وَهُو الأسْتاذ (أمين) يُعْطِي الحلْوى لِلْأَطْفال الَّذين يلْعبون.

تَوقفت أمامه، وَقُلت مشجعًا:

- إنه عمل كريم منك يَا أُسْتاذ أمين.

اِبتسَم قائلا:

- لَقد جَاءَنِي اِبْنِي سعيدًا أَمْس بِالشُّوكولاتة اَلتِي أُعْطيتهَا لَه، فأعْجبني هذَا الأمْر، وَقلت لَم لَا أَفعَل مِثْل الأسْتاذ يُوسف وأعْطى الأطْفال بَعْض الحلْوى اَلتِي تُسْعدهم.

ثُمَّ أَردَف:

- شُكْرًا لَك على إِسْعادك اِبْنِي، وَعلَى هَذِه الفكْرة الجميلة.

اِبْتسمت سعيدًا، وَهمستُ في نفسي:

- حقًّا إن السَّعادة مُعْدِية.

فِي اليوْم التَّالي،

أَحضَر أحد زُمَلاء العمل مخْبوزات جَمِيلَة المذَاق، وَقَام بِالْمرور عليْنَا لِلانْتقاء منهَا قائلا:

- إنها من أَجْل سعادتكم.

وَفِي خِلَال الأيَّام التَّالية،

لَم يكد يَمر يَوْم إِلَّا وَنجِد أحد الزُّملاء قد أَحضَر شيْئًا قائلا إن هذَا من أَجْل إِسعَاد اَلجمِيع.

كُنْت أَعلَم أن بَعْض أَعمَال الخيْر العلنيَّة المؤثِّرة قد يُقَلدهَا بَعْض النَّاس، ويكرِّرونهَا إِعْجابًا بِهَا.

وَهُو تَكْرار مَحمُود، لِأَنه فِي الخيْر وَمن أَجْل الخيْر، ولكنَّني لَم أَكُن أَتوَقع أن هذَا التَّكْرار وَهذَا التَّأْثير يُمْكِن أن يَحدُث بِهَذه السُّرْعة.

ثُمَّ أَعُود مُؤَكدا، ومكرِّرًا لتِلْك النصِيحة الغالية:

- أُنْشُروا السَّعادة بيْنكم، لِأن السَّعادة مُعْدِية.

-٤٩-

الخطوبة

مَرَّت الأيَّام التَّالية سَرِيعَة، وَسَعيدَة،
حَتَّى جاء يَوْم حَفْل خطوبتي، وَالذِي كان من أَجمَل الأيَّام.
كان الحفْل فِي بَيْت وَالِد مَريم، وكانتْ أمل وَجَمال فِي مُقدمة الحاضرين، وقد دعوْتُ إِلى الحَفْل عَمَّار وَوالِده، ويَاسِر وأوْلاده، وصَديقِي مُسعَد.
وَكَان يوْمًا رائعًا أَعلنتُ فِيه لِلْعالم كُله عن اِرْتباطي بِمريم، ورغْبَتي فِي أن تُصْبِح رَفِيقَة دربِي، وَشَريكَة حَياتِي،
وَهذَا هُو مَا تَستحِقه مَريَم، أن تَكُون علاقتنَا عَلاقَة يُباركهَا جميع الأهْل، وأن يَكُون اِرْتباطنَا فِي النُّور والْعَلن وَأَمام كُلّ النَّاس.
إن مَريَم تَستحق كُلَّ مَا هُو جميل، إنها تِلْك الشَّمْس اَلتِي سَطعَت فَأَنارَت لِي حَياتِي، وغيرتهَا تمامًا إِلى مَا كُنْت أريد وأتمَنَّى.
إنّهَا ذَلِك الحدث اَلذِي لَا يَمر عليْك سِوى مَرَّة وَاحِدة فِي اَلعُمر، فَإِن اِسْتقْبلته، غَيّر حَياتك إِلى الأبد، وأعْطَاك السَّعادة اَلتِي كُنْت تَنشُدها وتبْحث عَنهَا فِي كُلّ مَكَان.

إنهم يقولون إن فِي صُحبَة الصَّالحين الصَّلَاح، فمَا بَالُك إِن كَانَت زوْجتك وَرَفيقَة دَربِك وَشَريكة حَياتِك هِي من تَأخُذ بِيَدك إِلى عَالَم الخيْر والتَّطوُّع ومساعدة المحْتاجين، وَهِي أَكبَر سند لَك فِي هذَا اَلطرِيق اَلمُمهد إِلى السَّعادة.

لَقد اِتَّفقْنَا أن نُعّد مَسْكَننا فِي خِلَال الشُّهور القادمة، وَبَعدهَا سَوْف يَكُون حَفْل زِفافِنَا بسيطًا أيْضًا، على أن نَقُوم بِالتَّبرُّع بِمصْروفات هذَا الحفْل لِمسْتشْفى الأطْفال اَلخيْرِي ولمؤسِّسات خَيرِية أُخرَى،

وَلتكون هِي البِداية لِعَمل الخيْر معًا،

وَأوَّل تَنفِيذ فِعْلِي لِوعْدي لِمريم بِأن نَفعَل الخيْر معًا.

-٥٠-

الزواج

بَعْد مُرُور عِدَّة أَشهُر،

وبعْد إِتمَام إِعدَاد منزلنا، اِتَّفقْنَا على مَوعِد حَفْل الزِّفَاف...

كان حَفْل بسيط حَضرَه الأقارب والْمعارف والْأَصْدقاء، وَالذِين كَانُوا سُعَداء لِلْغاية رَغْم بَساطَة الحفْل اَلذِي أُقيم بِمنْزل وَالِد مريم أيْضًا.

كُنْت أَشعُر بِحب من حضر، وبأمنياتهم الصَّادقة اَلتِي نَبتَت كَورُود ذات رَائِحة ذَكيَّة فِي أَنحَاء الحفْل، تحيط بِنَا، وتبارك زَوَاجنَا.

كَانَت مَريَم فِي قِمَّة سعادتهَا،
كُنَّا نَبدَأ فِي هذَا اليوْم طريقًا جديدًا، وَحَياة جَدِيدَة،
كَانَت حَيَاتنَا تَتَغيَّر فِي هذَا اليوْم تَغيِيرًا جذريا،
وكم كَانَت تِلْك الفكْرة حَقيقِية لِلْغاية،
لَقد بدأْنَا معًا تغْيِيرًا جديدًا فِي هذَا اليوْم، وليْس فقط تغْيِيرًا فِي حَالتِنا الاجْتماعيَّة، وليْس فقط بِاجْتماعنَا وَعزمنا على إِكمَال حَياتِنا وطريقنَا، وَلكِن كان يَبدُو أنه سَوْف يَكُون هناك تغْيِيرًا من نَوْع آخر، تغْيِيرًا لَم يَخطُر على بَالِي أبدًا، وقد ظهر هذَا قُرْب نِهاية الحفْل، عِنْدمَا رأيْتُ الشَّابَّيْنِ اللَّذَيْنِ أوْصلاني مَدِينَة السَّعادة (هابينيسيا)، وَهمَا يقفان عِنْد باب اَلمنْزِل، هُنَا شَعرت أن هُنَاك شيْئًا مَا،
ومَا أن لَمَّحتهمَا حَتَّى ذَهبت إِليْهِمَا مُرَحبا ومتسائلا،
وَكَان جوابهمَا مُدْهِشا بِالنِّسْبة لِي.

-٥١-

السفراء

بادرَني أحد الشَّابَّيْنِ بِقوْله:

- لَقد جِئْنَا لِنقدم لك التهنئةَ بمناسبةِ زفافك.

ثُمَّ أَكمَل حديثه:

- وهناك أيْضًا من يُريد أن يتحدث معك، إن مَسئُول الاسْتقْبال بِالْمدينة فِي هَذِه اَلغُرفة المجاورة.

ثُمَّ أَشَار بِيَده إِلى باب إِحْدى غُرَف اَلمنْزِل...

ظَهرَت الدَّهْشة قليلا على وَجهِي،

ولكنِّي ذَهبت إِلى اَلغُرفة التي أشار إليها، وطرقت بابها ثم دخلتُ...

وَجدتُ مَسئُول اِسْتقْبال المدينة فاتحًا ذِراعَيْه لِيعانقني، وَهو يقُول:

- لَقد أتيْتُ مُبارَكا لَك زواجكمَا مُتمنِّيًا لَكمَا التَّوْفيق، إنكمَا من زُوَّار مَدِينَة السَّعادة، وَمن الرَّائع أن تَتَزوجَا وَتكمِلا معًا طريق الحيَاة.

سألته، وَأنَا مَا زِلْتُ أشُك فِي وُجُود سبب آخر لِوجودهم اليوْم هُنَا فِي حَفْل زِفافي:

- هل هذَا هُو السَّبب اَلوحِيد لِقدومكم اليوْم؟

نظر إِلى وَجهِي صامتًا لِلحْظة، ثُمَّ عاد فَجلَس على مَقعَد قريب، وَقَال:

- الحقيقة أنه لَيْس السَّبب اَلوحِيد لِقدومنَا، هُنَاك سبب آخر.

كَانَت هَذِه الإجابة هِي تَأكِيد لِكلِّ الشُّكوك اَلتِي كَانَت تَتَلاعَب بِعقْلي، فَعُدت أسأله بِفضول:

- هل يُمْكِن أن تُخْبرَني بِهَذا السَّبب الآخر؟!

قال بِسرْعة، وَبلَا تَردَّد:

- إن هُنَاك مُهمَّة لَكمَا.

قُلْت مُنْدهِشًا:

- هل سَنقُوم بِهَذه اَلمهِمة الآن!!، فِي يَوْم زِفافِنَا!!

ردَّ مُتفهِّمًا:

- بِالطَّبْع لَا، فموْعدهَا لَيْس اليوْم.

ثُمَّ أَردَف:

- سَوْف يَكُون هُنَاك إِجازة زَوَاج قَصِيرَة لَكمَا، وَبَعدهَا سَوْف تَكُون بِداية هَذِه اَلمهِمة.

كَانَت مَا تَزَال هُنَاك اَلعدِيد من الأسْئلة اَلتِي تَدُور فِي ذِهْنِي، فَقُلت مستفسرًا:

- وَلكِن مَا طَبِيعَة هَذِه اَلمهِمة؟ ولماذَا تُخْبرنَا بِهَذا الآن؟

أَشَار بِيَده إِلى مقعد آخر أمامه، وَقَال:

- اِجْلِس هنا، فسوْف أشْرح لَك بَعْض التَّفاصيل الهامَّة.

ثُمَّ أَكمَل حديثه بعْدمَا جَلست قائلا:

- إننا بِصَدد عمل برْنامج جديد يَتبَع إِدارة مَدِينَة السَّعادة، وقد أُطلق عليْه برْنامج سُفَراء السَّعادة... لَقد راجعْنَا آلاف الملفَّات لِمرشَّحين لِتولِّي مَهَام سفير السَّعادة، وَفِي النِّهاية تمَّ اِخْتياركمَا أَنْت ومرْيم لِتكونَا نَوَاة هذَا البرْنامج، وَأوَّل من سيتوَلَّى مَنصِب سفير السَّعادة التَّابع لِمدينة السَّعادة (هابينيسيا)، وَلقَد أتيْتُ إِليْكمَا مُبَشرا فِي يَوْم زِفافكمَا بِهَذا الخبر اَلسعِيد، ومتمنِّيًا فِي نَفْس الوقْتِ أن تقبلا بِهَذه اَلمهِمة اَلتِي سَوْف تُساعدكمَا على عمل اَلكثِير من الخيْر، ونشْر السَّعادة بَيْن النَّاس، ومساعدة مَدِينَة السَّعادة أيْضًا، إن

تجْربتكمَا السَّابقة فِي المدينة كَانَت مُحفزة وَملهِمة لِلْجمِيع، ونتمَنَّى أن تَكُون تجْربتكمَا كسفرَاء لِلسَّعادة بِنَفس النَّجَاح والْإِلْهام.

ظَهرَت ملامح السَّعادة على وَجهِي فَأنَا أعلَم جيِّدًا أن هذَا الأمْر سَوْف يَرُوق لِمريم.

فَقُلت وَأنَا أَستَعد لِلنُّهوض من مَقْعَدي:

- إن هذَا الأمْر سَوْف يَرُوق لِمرْيم كثيرًا عِنْدمَا أخْبرها بِه، سأذْهب لها حالا لأعرِف رأْيهَا.

قال مُشيرًا بِيَده ألَّا أفعَل:

- إن منْدوبة المدينة مَعهَا الآن، وَهِي فِي قِمَّة السَّعادة بِهَذا الخبر هِي الْأُخرى، وتتمَنَّى مُوافقتك على هَذِه الْمهِمة.

ثُمَّ أكمَل حديثه بِجدِّيَّة شَدِيدَة:

- إن مُهمَّتكمَا الجديدة سَوْف تَشمَل الْحُصول على عدد من الصَّلاحيَّات الَّتِي تَدخُل ضِمْن نِطَاق صلاحيَّات إدارة مَدِينَة السَّعادة والْعاملين فِيهَا، لِكي تُساعدكمَا على نَجَاح مُهمتكمَا كسفرَاء لِلسَّعادة، كمَا يَشمَل هذَا البرْنامج عدد من المهَامّ الَّتِي يَجِب عَلَيكمَا تنْفيذهَا والْأهْداف الَّتِي يَجِب تحْقيقهَا، كمَا يُمْكِن أن يَكُون هُنَاك الْعدِيد من المغامرات أيْضًا لِتخوضوهَا خِلَال عملكم... إن وافقتكمَا على هَذِه الْمهِمة، سَوْف تُصبحان من العاملين الأساسيِّين بهابينيسيا.

وَقبل أن يُكْمِل كلماته الأخيرة، وأثْنَاء حَديثِه، دَخلَت مَريم إلى اَلغُرفة بَعْد أن طَرقَت اَلْباب، وقد ظَهرَت اِبْتسامة سَعادَة كَبِيرَة على وجْهِهَا، وقالتْ:

- لَقد أصْبحْنَا سُفَراء سَعادَة يَا يُوسف.

اِبْتسمت قائلا:

- نعم يَا مريم، إنها خَير بِداية لِحياتنَا الجديدة، وَهُو تَغيِير حَقيقِي لِحياتنَا، وأعْلم تمامًا أنه قَدرنا، وَالذِي سَوْف يُساعدنَا على عمل الخيْر، ونشْر السَّعادة بَيْن النَّاس.

قاطعْنَا المسْئول، وَهُو يَنهَض واقفًا:

- هل تُوافقان على أن تُصْبِحا سُفَراء لِلسَّعادة، وأن تَكونَا ضِمْن العاملين بِمدينة هابينيسيا مَدِينَة السَّعادة؟

أجبْنَا سويًّا، وَفِي نَفْس الوقْتِ:

- نعم، لَقد وافقْنَا.

مدّ يَدِه إِلَيْنَا بِبطاقات تعْريفيَّة أعدَّت خِصّيصًا لَنَا، وَعَليهَا لَقب سفير السَّعادة، وَالتِي أخذْناهَا منه بِلهفة وفرح.

ثُمَّ وَضعْ صُنْدُوق كبير أَصفَر اللَّوْن أَمَامنَا، وَأَشار بِيَده ألَّا نفْتحه الآن، وَقَال:

- هَذِه الأدوات الخاصَّة بِكمَا، سَوْف تصلكمَا كُلّ التَّعْليمات الخاصَّة بِالْمهمَّة والْخاصَّة بِهَذه الأدوات بَعْد اِنتِهاء إِجازتكمَا القصيرة.

رددنا سويًا:

- ونحْن على أتمّ اِسْتعْداد.

اِسْتأْذن المسْئول، وغادر اَلغُرفة.

نَظرت إِلى مَريَم قائلا:

- إنها مُفَاجأَة كَبِيرَة فِي يَوْم زِفافِنَا.

قَالَت، وَهِي تكاد تطير من الفرح:

- وَلَكنهَا مُفَاجأَة سَعِيدَة لِلْغاية.

قُلت مُؤَكدا لِكلامهَا:

- نعم، إنه تَنفِيذ كَامِل لِشَرط زَواجِك بِي، وَمن أَوَّل لَحظَة فِي اِلتِقاء طُرُقنَا.

ضَحكَت مَريَم،

ثُمَّ عُدنَا إِلى حَفْل زِفافِنَا مَرَّة أُخرَى.

-٥٢-

النهاية

كَانَت الطَّائرة الطَّوَّافة فِي طريق عَودتِها إِلى (هابينيسيا)،

وَكَان مَسئُول الاسْتقْبال ومنْدوبو المدينة يجْلسون على مَائِدة صَغِيرَة تجمعهم دَاخِل الطَّائرة،

وَهنَا سَأَلَت مَندُوبة المدينة:

- هل يُمْكِن أن يُكتب النَّجَاح لِيوسف ومريم فِي مُهمَّتهمَا اَلأُولى؟

أَجَاب المسْئول بِجدِّيَّة:

- أَتمَنى هذَا كثيرًا.

ثُمَّ أَكمَل بِقَلق شديد:

- إن بَقَاء مَدِينَة السَّعادة مَرهُون بِنجاحهمَا.

أَومَأ اَلجمِيع بِرؤوسهم مُوافقين . . .

واسْتمرَّت رِحْلتهم نَحْو هابينيسيا،

وَهُم يتمنَّوْن من أَعمَاق قُلوبِهم نَجَاح يُوسُف ومريم فِي مُهمَّتهمَا القادمة.

يتمنَّوْن نَجَاح سُفَراء السَّعادة وَبَقاء هابينيسيا.

مدينة السعادة

هابينيسيا

رواية

ماذا يحدث إن أتتك دعوة غريبة إلى
مدينة لا يعرفها أحد تسمى
هابينيسيا أو (مدينة السعادة) ؟

فهل تغتنم تلك الفرصة التى لا تأتي
سوى مرة واحدة وتستطيع أن تغيرك
إلى الأبد

د. تامر شعبان